نهاد الغادري

٣٠ يومًا في سجن المزة



«ذكريات سوداء من العهد الأسود»

مطبعة المعارف نجيب كنيهي - حلب


المكتبـة


جامعة مقديشو
1997
علم و عمل
١٤١٨هـ
MOGADISHU UNIVERSITY

الإهداء

إلى كل مضطهد تسيل

من شفتيه خيوط الدم

وعليهما ابتسامة الوثوق

بالنصر

أهدي هذه الصفحات

بعد المحنة

* مقدمة وخاتمة
* المحنة والشعب
* نفوذ الاستعمار
* هذه الحرية . أضحوكة وألعوبة

مقدمة وخاتمة

أهي مقدمة للكتاب هذه الكلمة ، أم خاتمة ؟ أم هي ليست بهذه ولا تلك ؟ اذا كان معنى المقدمة أن توجز فكرة الكتاب فليست هذه بها . واذا كان معناها ان تقدم بين يدي الكتاب بفكرة هي من صميم الموضوع ، متصلة به ، أو مكملة له وموضحة جانباً من جوانبه ، فهذه مقدمة ، كما هي خاتمة .

المحنة والشعب

لقد مرتْ بالبلاد محنة الديكتاتورية في كل صورها : سافرة ومقنعة ، مهاجمة ومدافعة ، قوية قاهرة وضعيفة مقهورة ؛ ثم انجابت الغمة ، وانجلى الكرب ، فماذا كان من امرها بالنسبة للحاكم ، وبالنسبة للشعب ، وما نتائجها ؟

فأما الشعب في قاعدته ـ أي في طبقاته الشريفة الدنيا ـ فقد انكشفت له بكل فضائحها ، وفسادها ، وخيانتها ، وهو يود بكل قواه ، وقد ذاق مرها

وحده ، أن لا تتجدد مأساتها الدامية ، وان يتجنب تجربة أخرى من تجاربها المريرة ، تعصف بأمنه ، وتقضي على بقية أمله في حياة مرفهة العيش ، كريمة المستوى ، محققة السيادة .

وأقول: ذاق مرها وحده ، ذلك أن الطبقة العليا ، وخاصة الاقطاعية ، صاحبة المصلحة الاوفر في ظل النظام القائم ، لم تمسسها الديكتاتورية بأذى ، ولم تصب مصالحها بسوء ، بل هي انطلقت الى مداها مع جشعها في ظل الديكتاتورية مستغلة الفرصة التي اتاحها لها الطاغية في قمع كل حركة ، واخماد كل صوت ، وتحقيق الامن والهدوء ، المصطنعين ، على حساب الطبقات الشعبية المجهدة ، فلا العامل يقدم على المطالبة ، ولا الفلاح يجرؤ على الشكوى ، ولا المواطنون جميعاً يستطيعون ان ينفسوا عن آلامهم الخانقة ، ومظالمهم المريرة

وهكذا .. عاشت تلك الطبقة العليا في ظل الديكتاتورية العسكرية ، كما عاشت دائماً ، نافذة الامر ، مسموعة الرأي ، مقضية المصلحة !.. وهل كانت آلة الديكتاتورية المنفذه في البلاد ، الا من هذه الطبقة ؟!!

تلك مرحلة قطعها الشعب مشياً على الشوك ، وهو يود صادقاً ، وبكل قواه أن لا تتجدد ، وأن لا يكون غده يوماً مكرراً من أمسه !

وأما الحاكم ، فأمره آخر ، وطريقه مختلف .

وليس أعجب حين تدير عينيك فيما حولك لترى ما تغير من وحوه الحكم ومن بنائه ، فلا تجد الا الطبقة المستثمرة نفسها ، تلك التي حكمت في كل عهود الحكم ، وهي تحاول اليوم جاهدة ان تطبق بكلابتيها على الحكم .. والا الطلاء

جديداً في البناء فهو وحده الذي تغير ، ويتغير دائماً ، مرة طلاء ديكتاتوري قاتم ، صريح او خفي ، ومرة طلاء ديموقراطي جاذب اللون ترتاح له العين .. اما البناء فواحد على اختلاف الطلاء !!



نفوذ الاستعمار :

ولعلك تراع أكثر ، حين تلقي بسمعك وأنت تعلم ان ثورة الشعب على الديكتاتورية لم تستهدف رجلها ، وانما استهدفت - فيما استهدفت - الاستعمار الذي عزله عن الشعب ، ليديره لاغراضه ، ويوجهه لمصالحه ومشاريعه .. تراع حين لاتسمع في أصوات معظم رجال الحكم ، صوتاً ينكر هذه المشاريع ، وتلك المصالح والاغراض .

قد ينفيها ، ولكنه لا ينكرها أو يهاجمها !

وهل من تفسير لهذا ، الا أن الحاكم في ظل هذا النظام ، يرى مصلحته في هذا السكون المبطن بالتأييد ؟!

أو ليس الاستعمار صديق معظم رجال الطبقات الحاكمة - المتسلطة - يهيء لهم جو الحكم ، ويمدهم بالعضد والسند ، ليهيئوا له جو الاستثمار ويمدوا مشاريعه بالعون والتأييد ؟!

ان مقياس وطنية الحاكم عندي وتحرره من نفوذ الاستعمار ، امران: اولهما ان يعلن مقاومته لمشاريع الاستعمار ، وأحلافه وخططه وان يرفضها جملة وتفصيلا ، اصولا وفروعاً ، ويقيم علاقتنا الدولية الخارجية على اساس مصلحتنا لا مصلحة غيرنا ، وثانيها : ان يطلق الحريات الديموقراطية جميعاً ، وخاصة منها حرية

الاحزاب اليسارية ، وحرية الصحافة ، فلا يسلط عليها سيف الارهـاب ، أو يحاول ترويضها على الطاعة بالقوانين الجائرة .

وأود أن أسأل القارئ : أين تتجلى مصلحة الاستعمار في بلادنا ، وفي العالم كله ؟!

أليس في تحقيق مشاريعه العسكرية ، واحلامه ، وخططه ، تمهيداً لحربه القادمة التي يعد لها عدته بكل ما يملك من وسائل العلم ، وأسلحة الدمار ونفسية المستعمر ؟.. وفي فتـــح أسواق البلاد رحيبة لبضائعه ومنتجاته ..وفي اطلاق الحرية لرساميله الاجنبية ، تنسل كالأفاعي الصفر ، وتتمكن كالعلق الشره يمتص بها خيرات الوطن ،ويستنزف موارده ؟!

أليس في كبت الحريات الديموقراطية ، وفي مقاومة الحركات الشعبيـة الوطنية ـ على اختلافها ـ لانها خصمه الالد الذي يحول دون تحقيق أغراضه ومشاريعه ، ومطامعه ، ويهدف الى تحسين مستوى الشعب ، وتحقيق وجوده؟!

واذا كانت مصلحة الاستعمار تتجلى في هذين ، فلم نحقق له هذه المصلحة في بلادنا ، وما مصلحتنا في تحقيقها ؟!

وأحب أن يفرق القارىء بين الدعوة الى مذهب معين ، او اتجاه معين ، وبين الدعوة الى الحرية ، والتخلص من الاستعمار ، يقول فولتير : « اناخالفك تمام المخالفة فيما تقول . ولكنني ابذل آخر نقطة من دمي دفاعاً عن حقـك في الجهر برأيك . »

اننا نجتاز من تاريخنا الحديث،أدق مرحلة،وأوعرها مسلكا .. وقد آن لنا أن نؤمن بالحريات الديموقراطية غير المقيدة طريقاً سوياً اميناً ، غير ذي مخاوف

فما يجوز وقد مرت البلاد بمحنة الديكتاتورية ، وذاقت صعابهـــا ، وناضلت الاحزاب جميعاً خلال تلك المحنة في سبيل الحرية السياسية للشعب .. ما يجوز ان يجيء أي حزب الى الحكم فيطعن ما ناضل من اجله ، ويبيح هـذه الحرية لفئة دون فئة ، ولحزب دون حزب !

هذه خواطر تعرض لكل مواطن حر ، مهما يكن اتجاهه الحزبي ، وهو يجيل البصر فيما حوله ، ويحاول أن يلمس تغييراً في اسلوب الحكم بعد المحنة ، وخروجاً من الدائرة المغلقة الضيقة التي ما انفكت تدور فيها سياستنا الخارجية والداخلية على السواء ، والتي لا تحقق لغير المستعمر فائدة وربحاً .. تعرض لكل مواطن حر ، وهو يجيل البصر ، فلا يجد الا التناقض الفاضح .. ولا يجد جديداً الا الطلاء !!



هذه الحرية .. أضواؤه وألوانه !

وننتقل بعد ، الى حديث الحرية ، هذه التي انبهرت دونها أنفاس الشعب في نضاله المستميت ، وتمزقت في سبيلها ظهوره بالسياط ، وفاضت أرواح كثيرة طاهرة من أبنائه على أزيز رصاص الديكتاتورية ، وفي غيابات سجونها .

ننتقل الى حديثها ، فعلى حسن تقديرنا لها وفهمنا اياها ، يرتبط فيما أرى ، مستقبل الوطن ومصيره .

لماذا اراد الشعب الحرية ؟

لقد ناضل الشعب في سبيل حريته ، ليفضح بهامشاريع الاستعمار أولا ، ويكشف حبأ الطاغية كأجير من أجرائه ، وعميل من عملائه ، وليدفع طغيان

الفئة المستثمرة ثانياً . هذه الفئة التي تجبى اليها خيرات الوطن من شقاء الشعب وعذابه ، ومن عرقه ودموعه !

لهذا اراد الشعب الحرية

ولكن ما ان انهارت الديكتاتورية ، حتى انطلقت الاصوات هنا وهناك مسبحة حامدة ، تضلل الشعب في معنى الحرية .

ولذا ، وجب أن نحدد ما يريد الشعب منها ، أيريدها حرية له ، أم حرية لفئة منه ؟ وهل من سبيل الى حرية الشعب الكاملة ، أم هي بعيدة المنال لاسبيل اليها ؟

ان الشرط الاول لاستخدام الحرية أن تكون حراً ، فلا يستخدم الحرية فاقدها . وفي المجتمعات التي تطغى فيها فئة على فئة ، وتستثمر طبقة طبقة ، تنعدم حرية الشعب ، وتصبح كالافق البعيد لاسبيل الى الاقتراب منه .

وهل يستطيع الفلاح في ظل نظام اقطاعي أن يستخدم حريته وهو يعيش تحت نعل مالك الارض ، يتصرف به وبها كما يشاء ويهوى ؟

وهل يستطيع العامل في ظل نظام رأسمالي أن يستخدم حريته وهو واقع في قبضة صاحب المعمل ، وتحت رحمته ؟

ان النظام الاقتصادي القائم على اساس حرية الاقطاع ، وحرية الاستثمار يشل الفرد عن استخدام حريته ، وتبقى الحرية في ظله ، حرية المستغلين في الاستغلال واقرار الظلم باسمها .

فباسم الحرية ، لا بالحرية نفسها ، يريد الاقطاعي رب الارض ان يحتفظ بحريته في اضطهاد الفلاح ، ونهب حقوقه ، يؤيده الحاكم وتسنده السلطة ؟

وباسم الحرية،لابالحرية نفسها ، يريد رب العمل أن يحتفظ بحريته في تسريح العامل ، وفي استغلال حاجته الى اللقمة ، لتشغيله بأدنى حد من الاجر !!

وباسم الحرية ، لا بالحرية نفسها ، تريد الفئة الحاكمة ان تحتفظ بحريتها في الضغط على الحرية ، لتحمي طبقتها ، وتثبت سلطانها .

باسم الحرية ، في ظل التركيب الطبقي للمجتمع ، تريد الطبقة المستثمرة الحاكمة هذا جميعاً ، وتريد أبعد منه ان استطاعت اليه سبيلا ! وكل ما يقف في وجه حريتها هذه ، فوضى ، واثارة للفتن والاضطرابات ، واعتـــداء على الحرية .. حريتها !!

أي انها تريد ان تحتكر الحرية ، كما احتكرت أسباب العيش باسم الحرية وان تجعلها وقفا عليها ، تستغل فيها ما يعجبها ، وتهمل مالا يروقها !

هذه الطبقة ، في ظل هذا النظام ، تريد الحرية مطيـة ذلولاً لمصالحهـا وأغراضها !.

وهكذا .. تصبح الحرية ، هذه الحرية ، قوة معبأة لمقاومـــة الشعب واضلولة من اضاليل الاقطاعية ، والانتهازية ، وألهية من الهياتها.

ان الحرية الحقيقية لا تكون حرية نفر ، وانما حرية شعب . ولا تتحقق حرية الشعب في أتم وجـــودها ، وأكمل صورتها الا بتحرره من قبضة الاقطاعية الممسكة بخناقه ، والاستثمار المستغل لجنود أبنائه .

لا تتحقق الحرية للشعب ، الا بتحرر لقمته .

يقول مارسيل فبلار « ان الحرية الكاملة لا تأتلف مع قيام الامتيـازات الطبقية، ولا يتحقق قيامها الا في ظل نظام خلو من استغلال الانسان الانسان

ومن جذور التناحر الاجتماعي . »

اذن . فمنذ يبدأ في المجتمع التركيب الطبقي ، ينشأ معنى الاستبداد ، وتنكمش الحرية عن طبقات الشعب الدنيا ، وتتقلص .

وهنا يرد هذا السؤال : والسلطة الحاكمة ، القائمة بارادة الشعب في ظل النظام الديموقراطي ، أين هي من كل هذا ؟ وما موقفها ؟ وكيف لا تحول دون استغلال الحرية والطغيان باسمها ، وتسخيرها لاقرار الظلم ، وتسويغ الحيف !

والجواب : ان الحكومة في ظل أي نظام طبقي لا يمكن ان تكون ممثلة للشعب . فهي آلة في يد الطبقة المسيطرة ، الطبقة التي تشكل القوة الرئيسية في الامة ، ففي ظل النظام الاقطاعي تسيطر الطبقة الاقطاعية ، وتكون الحكومة آلة في يد الاقطاعية تحكم بها بقية الطبقات ، وفي ظل النظام الرأسمالي تسيطر الطبقة الرأسمالية وتكون الحكومة آلة في يد الرأسمالية تحكم بها غيرها ، وفي ظل النظام الاشتراكي فقط تسيطر الطبقة العاملة الشعبية ، وتكون الحكومة آلة في يد الشعب . ولقد تجتمع الاقطاعية والرأسمالية في استخدام آلة الحكم - في مرحلة الانتقال من الاقطاعية الى الرسمالية - لانها تحقق نوعاً من التعاون بين المستثمرين كطبقة واحدة في الاستثمار ، ولكنها لا تجتمع ابداً مع الاشتراكية ، للتناقض الحاد بين مصالح المستثمَرين ، والمستثمِرين ، ولأن معنى حكم الطبقة العاملة في ظل النظام الاشتراكي ، توجيه اداة الحكم توجيهاً صارماً ضد الطبقة المستثمرة لتحطيمها تحطيماً لا يعيد اليها الحياة . وهكذا نجد ان حرية الشعب ليست ممكنة الا في ظل ديموقراطية شعبية . في ظل الاشتراكية

نخلص لنا من محض هذا كله ان الحرية صورة من النظام القائم ، فهي في ظل الديكتاتورية حرية الديكتاتورية ، وهي في ظل الديموقراطية البورجوازية حرية البورجوازية ، وهي في ظل الديموقراطية الشعبية وحدها ، حرية الشعب.

على أن هذا لا يعني انا اذ نطالب بالحرية ، نطالب بها كلاً فاما ذاك واما لا . لان الحرية الكاملة مرتبطة بنسف النظام الفاسد ، وانما اردت ان اعرض واقع الحرية في ظل أنظمة الحكم لئلا ينخدع الشعب بالاصوات التي تزعم له ان في زوال الديكتاتورية معنى حريته ، فدون هذه الحرية نضال طويل ، وكفاح شاق ، ولئن لم نظفر اليوم بالحرية جميعاً فنحن نتمسك ، وبقوة ، بما بين ايدينا منها ، فهذا الجزء سبيلنا في النضال الى الكل ، ونقطة الانطلاق نحوه هو طريقنا الى الحرية الكاملة ، حرية الشعب الواحد ، في المستوى الواحد .



وبعد . فهذه صفحات عن فترة الاعتقال التي انتهت بالطاغية الى الفرار ، وبالشعب الى الانتصار ، سجلتها في كثير من الامانة ، ولم ارد منها ان تكون قصة تلذ القارىء . بقدر ما اردتها صورة شاملة معبرة ، سريعة الخطوط لتلك الفترة ، وضمن الدائرة المغلقة التي كنا نعيش فيها كمعتقلين . فان نجحت فذاك اردت . وان اخفقت فبحسبي اني اردت صادقاً ، ونقلت صادقاً .

الاعتقال والجو السابق له

* ظروف الاعتقال
* في نظارة التعذيب بحلب
* في نظارة دمشق
* سجن المزة
* المهجع رقم ٣٦

١٦

كان ذلك مساء الخميس ٢٨ كانون الثاني .

وكان قادة الاحزاب وبعض رجالاتها قد اعتقلوا في اليوم السابق ، في دمشق ، وحمص ، وحلب .

وكنا نرتقب هذا اليوم . فقد كان لا بد للشيشكلي - لكي ينتهي - من أن يختبط ، ويفقد توازنه ، وسيطرته على أعصابه . ولم يكن هنالك فيما بدا آنذاك ، من سبيل الى النهاية الا هذا .

وكان الجو السابق لحملة الاعتقال والاحكام العرفية في البلاد ، جواً مثيراً ملبداً بالغيوم الدكن ، منذراً بالعواصف .. وبالنهاية .

فقد كان واضحاً للشعب أن يداً غير الشيشكلي ، تسير الحكم من وراء الستار ، وترسم للطاغية الطريق،هي يد الاستعمار الاميركي الذي أراد عن طريق الديكتاتورية العسكرية ، أن يفرض سلطانه ، ويعزز نفوذه ، ويحقق مشاريعه العسكرية ، ويفتح أسواق البلاد رحيبة واسعة لمنتجاته .

كان هذا واضحاً للشعب . وكان يدرك في اعماقه - كما يدرك اليوم - أن وضعاً قائماً على الفساد ، ومساندة الاستعمار ، غير قابل للبقاء والاستمرار . وكان يشعر أيضاً في أعماقه - كما يشعر اليوم - انه ما من حكم يستمر ويبقى اذا اعتمد في بقائه واستمراره على المستعمر .. وعلى كلمات العدالة الفارغة يوزعها على الجماهير ، ليهدئ أعصابها ، ويسيل لعابها !

وكان يدرك أيضاً وأيضاً - كما يدرك اليوم - أن بقاء الحاكم مرهون بمدى مايشعر به نحوه حياة الشعب من واجب العمل ؛ وبمدى ماتنسجم وعوده مع النتائج .. فلا تقتصر - مثلا - توزيع الارض على الفلاحين ، على المراسيم والخطب ، واذاعات الراديو ، وأخبار الصحف ! ولا تقتصر رفع مستوى حياة الطبقات العاملة ،تلك الفرائس المهدورة الكرامة ، والمسروقة الحقوق ، على تمنيتها بالمستقبل السعيد ، هذا المستقبل الذي يزداد بعداً من الواقع كلما ازداد قرباً في البيانات !!

ولم تقتصر هذا الشعور بعدم قابلية الوضع للبقاء والاستمرار ، على الجماهير الشعبية ، بل تعداه الى اولئك الذين أحاطوا بالشيشكلي نفسه ،وحاولوا أن يقيموا لحكمه الاسناد ، فقد كانوا هم ايضاً يشعرون بوهن الوضع ، واقتراب النهاية ،ولكنهم جهدوا في اطالة حياته ، ومده بالحقن والمقويات ، لينفسح لهم مجال أطول في الزمن ، يستثمرون فيه الشعب ، ويحتلبون ضرعه الخير المعطاء . وهكذا .. فقد كان الجو السابق الاعتقال والاحكام العرفية ، جواً مثيراً ، منذراً .. وكان لابد للوضع من ان ينفجر ، بعد أن تراكمت الحوادث كماً واقترب الكيف من نقطة التغير .

★

حمى الاعتقال

وانقضى يوم الاربعاء ونهار الخميس دون حادث ، الا خطاب اديب الشيشكلي الذي اذاعه من دار الاذاعة في دمشق ، وأعلن فيه الاحكام العرفية في بعض المناطق دون ان يسميها ، وبرر اعتقال قادة الاحزاب بالنشاط الحزبي غير المرخص !. وكانت تعلة ، فقد ادرك الشعب ان الشيشكلي ضاق بالقـدر الضئيل التافه من الحرية الذي سمح به في دستوره ، وانه يريد ان يستلب بالشمال مامنحه باليمين !

وغير خطاب الشيشكلي المذاع ، اعتقال بعض الشباب المناضل ، ممن كان قذى في عين الديكتاتور ، وحسكة في حلقومه ، فوقف في وجه طغيانه واجرامه ، يحتمل ارهابه وأذاه .

وفي الساعة الخامسة من مساء الخميس زار ادارة جريدة « التربية » التي اعمل مديراً لتحريرها موظفان من الامن العام طلبا الى صاحب الجريدة مرافقتهما الى مديرية الشرطة في امر هام . وما ان خرج صاحب الجريدة معهما ، حتى سارعت الى معطفي أرتديه ، فقد تكشف لي كل شيء على حقيقته .. وعلمت ان ليس بيني وبين الاعتقال ، الا مايتيح لي استعراض الموقف وتقرير الخطوة .. وان حنق انصار الشيشكلي قد يدفعهم الى اهتبال الفرصة ـ وقد واتت ـ ليفعلوا ماشاء لهم النفاق والزلفى ، والتقرب من الحاكم بتعذيب خصومه وارهابهم ! ولكن رجال الامن كانوا احوط واسرع الى العمل ، فقد اطبق ثمانية منهم على الجريدة واغلقوا ادارتها ، ومكتبي ، وختموها بالشمع الاحمر . تماماً كما يفعل شرطة الاخلاق ببيوت الدعارة السرية !!!

واستاقني موظفو الامن الى مديرية الشرطة ، فأوقفت في غرفة رئيس الشعبة السياسية بعض الوقت ، ثم نقلت الى نظارة الشرطة في مخفر باب الفرج فقذفت فيها مع صاحب الجريدة ، وكان احد الرفاق المعتقلين قد سبقنا اليها بساعات

في نظارة التعذيب

لم تكن نظارة للتوقيف هذه التي زججت فيها ـ وهي المرة الاولى التي احل ضيفاً غير مكرم ولا عزيز عليها ـ بل مكاناً للاهانة والتعذيب ، وهدر كرامة المواطن . ولقد شعرت فوراً بعمق وبوضوح ، انني في وطن تتصرف به عصابة !

كانت غرفة صغيرة حقيرة ، اضيق من كف الشحيح، كأنها قطعة من الشارع الاصلع ، ليس فيها مايجلس اليه الانسان او يستند ، الا الجدار البارد. ويحاذيها غرفة مماثلة ، تقابلهما غرفتين اخريين ، وبينها رواق غص بالاوساخ والاقذار ، وبالموقوفين من سكارى واصوص ومجرمين ، وقد ابدى احد رفيقي اشمئزازه من حشره معهم ، وقال : انحن بعض هؤلاء ام معتقلون سياسيون ؟ قلت : ولكن لا تنس اننا في الاضطهاد واحد ، وكلنا ضحية . اولئك ضحايا لصوصية المجتمع الاقطاعي الذي نعيش فيه ، ونحن ضحايا بطشه وديكتاتوريته . وليس فينا جميعاً الا من هو معرض لان يكون يوما هذا السارق ، وذلك المجرم ، مادام لصوص المجتمع الكبار ، سادته الكبار ، يسرقون لقمة العيش على شبع وتخمة .. هذه اللقمة التي تمسك في الانسان وجوده الانساني

وسكت رفيقي وقد هز برأسه ، وطفت على وجهه ابتسامة هزيلة عبرت عما يكاتم من ألم اخرس

وكان في الغرفة المجاورة بقايا تنكة عتيقة هي مرحاض الموقوفين ، تتصاعد منها روائح النتن ، فتدفع النفس الى القيء . ولعلها بمربط من مرابط الدواب اشبه منها بنظارة للتوقيف ، واقرب الى الواقع .

قضينا سبع ساعات في هذه الغرفة المظلمة الحقيرة وقوفاً ، لم يغمض فيها لنا جفن ، على مراودة النوم لنا ، وكنا نكد الذهن في التفكير بما يصير اليه الوضع ، والنتائج التي تترتب على هذه الموجة من الاعتقالات .

وفتح باب النظارة في الساعة الثالثة صباحا وكنا قد اعيانا الوقوف ، واطل وجه شرطي لم نتبينه في العتمة ، وصاح بنا في صوت غليظ كخوار ثور ان تهيأ للسفر . فقمنا ننفذ الامر . وخرجنا لنساق كبعض الماشية مستسلمين لمصيرنا المجهول .

وخيرنا موظفو الامن بين سيارة الشرطة « البيك آب » المكشوفة ، ننقل فيها الى دمشق في قرس البرد وشدته ، وبين سيارة اجرة من حسابنا ، فاخترنا الثانية مكرهين .

وانطلقت بنا السيارة ، وقد سد ابوابها الثلاثة عمالقة ثلاثة من الشرط وتكومنا في داخلها نحن الثلاثة ايضاً كالسردين متلاصقين متلاحمين ، وكان النعاس قد ارهقنا ، وخاط جفوننا ، فغلبنا بعد صراع ، واستسلمنا لنويعات قصيرة كان يقطعها قلق السيارة المذعورة على طريقها الكثير الحفر والاخاديد . ولم يترك لنا ما نحن فيه من التصاق والتحام مجال التفكير بأمر ، حتى لكدت

ورفيقي نتقلب الى شخص واحد كعاشقين متيمين . ولو قدر لابن الرومي ان يرانا وهو يقول :

اعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تداني

لعلم ان بعد العناق هذا الالتحام والالتصاق !!

واستقبلنا عند مدخل حماه بعض رجال الشرطة على سيارة حمراء ذات صفير حاد ، انطلقت اثرنا مرافقة حتى حمص ، ثم غابت .. ومضت سيارتنا تنسال بنا وتنحط تبتغي دمشق .. ودخلنا العاصمة في وضح النهار .

في نظارة دمشق

تسلمنا الشرطة في دمشق ، وساقونا الى نظارة المديرية صفاً واحداً كبعض المجرمين العتاة . وكانت النظارة الجديدة افضل من نظارة حلب ، فعلى الرغم من انحجاب الشمس والهواء عنها ، فقد كان فيها مقعدان خشبيان مثبتان ، يتيحان للانسان ان يجد عليهما بعض الراحة ، بعد الرهق الطويل ، والليلة القاسية . وطلبنا من عمنا ابي ياسين طعاماً ، فما كان اسرعه ، جوزي عنا الخير ، الى التلبية . واعقب الطعام بثلاثة اقداح من القهوة اللذيذة ، ردت لنا بعض صحونا المفقود . ثم دس لنا بعد قليل من زيق الباب جريدة « القبس العلم » فامتدت يدي اليها اختطفها قبل رفيقي ، واسرعت ألتهم سطورها لعل مايسمح بنشره من الاخبار يوضح الموقف قليلا ، او يلقي عليه ضوءاً .

قرأت بصوت مرتفع احتجاج بعض المعتقلين من المحامين في دمشق ، وبيان الطلحية المذاع مقبل يوم من دار الاذاعة ، ثم اثار انتباهي هذا العنوان الضخم « احالة المعتقلين الى المحاكمة بتهم يجري اعدادها » وقد ضحكنا كثيراً لكلمة

« يجري اعدادها ! » فقها سخرية نافذة ، وهي تصور واقعنا بصدق ، وماعسى تكون حريتنا ان لم تكن تهماً يجري اعدادها ؟!!

وانقضت ساعة .. وساقنا الشرطي الى غرفة رئيس الشعبة السياسية فاستقبلنا بوجه معار ، حاول جهده ان يكسوه طابع الهيبة .. ورمانا بنظرة تمثيلية صارمة .. ومكثنا دقائق ونحن سكوت وهو ساكت ، نحد النظر اليه ويحد النظر الينا ، ثم امر بنقلنا الى سجن المزة العسكري ، ولم ينس ان يشاكس احد رفيقي قبل ان نخرج ، فسأله عن اسمه وصنعته والحزب الذي ينتمي اليه . فأجابه عن السؤالين الاولين ، واهمل الرد على الثالث . فأعاد السؤال فأجابه : وهل هنالك احزاب ؟ انها ملغاة !!

وخرجنا وقد امسك بالهاتف يطلب مدير سجن المزة ، ويوصيه بنا « خيرا كثيراً » !!

ونقلنا يرافقنا عدد ضخم من الحراس . وما ان شارفنا السجن المرتفع ، حتى شعرت بشيء يهبط في اعماقي ، كطفل يهوي في مرجوحته . ومر بخاطري كشريط سينمائي ، كل ما اعرفه عن هذا السجن الكريه في مرة سابقة ، وما ذقته من الوان الاهانة وصنوف التعذيب .

*

سجن المزة

يقع سجن المزة على شرف من الارض ، فوق قرية المزة . ويبعد من دمشق ستة كيلو مترات وهو مبني من الاسمنت المسلح ، واذا استثنينا طريقه المعبد الموصل اليه ، فانه يطل من جوانبه الثلاثة على اودية قريبة ثلاثة ، وتحيق

به الاسلاك الشائكة احتياطاً على المساجين من الهرب ، وهو مؤلف من طابقين يحتويان على اثنى عشر مهجعاً كبيراً ، يتسع كل منها لخمسين موقوفا ، وقد يتسع لستين او سبعين حين تقضي الحاجة ، وعلى ثمانية عشرة غرفة منفردة لا يزيد طول الواحدة منها على المترين ، وعرضها على المتر ، وست غرف احرى فيها مصاطب صغيرة مرتفعة للنوم ، من الاسمنت ، ومرحاض مكشوف . وتسمى هذه الغرف عندالموقوفين بأبي ريحة . والتذكيرهنا لاسم الغرفة الاجنبي وهو « السلول » وقد اطلق عليها الاسم لان روائح النتن والقذر تفوح حادة منها حين تفتح المجارير ، وما اكثر ماتفتح ، وتزكم الانف ، وتثير النفس .

وفي السجن ايضاً اربع غرف مزدوجة تتسع كل منها لموقوفين ، وغرفتان تتسع كل منها لاربعة او خمسة .

وعدا هذا ففيه غرف اخرى واسع بعضها وضيق بعضها ، تستعمل لمكتب مدير السجن ، وموظفيه ، ولمستودعه ، ومطبخه ، وحرسه .

وترابط امام السجن مصفحتان مزودتان بالاسلحة الرشاشة ، ويروع الداخل اليه كثرة ابوابة المصفحة ، والمشبكة بالزرد الحديد ، وردهاته ومنعطفاته . وفي الطابق السفلي منه ممران جانبيان يتمشى فيها الموقوفون في فترتي التنفيس اليوميتين ، وهما الفرصتان الوحيدتان في السجن لرؤية النور واستنشاق الهواء الهواء . اما الطابق العلوي ففيه فسحة افضل تشرف من احد جانبيها على غوطة دمشق ومن جانبها الآخر على الجبال المحدقة بالسجن ، المرتفعة عنه قليلا .

★

في السجن

وهبطنا الى الارض من سيارتنا الكبيرة ، وانفتح الرتاج ليستقبل ضيوفه الجدد ، وما اكثر ما استقبل ايام الطاغية من ضيوف !

وقادنا الشرط يسلكون بنا في فناء السجن حتى انتهينا الى غرفة المدير ، وكان اول ماتنفست له الصعداء انه غير المدير الذي اعرف ، ويعرفه الكثيرون فذاك جلاد محترف ، يندر ان تجد له مشابهاً في الدراية بفنون التعذيب ، وان له في تاريخ المزة لتاريخاً ارهب من السجن !

والقى علينا المدير الجديد نظرة ، واومأ لحراسنا ، فأخذنا الى المستودع لنضع مانحمل من ورق واقلام، واغراض اخرى امانة حتى خروجنا . وقد فتشنا الجنود ، واخذوا منا رباط العنق والحزم ، ورباط الحذاء ، وقد قيل لنا في تفسير ذلك انه تدبير متبع لئلا يعمد الموقوف الى الانتحار !. وضحكنا لفكرة الانتحار برباط الحذاء . وتمتم احدنا في صوت خفيض ، ولكنه مسموع لن يفرح بها سيدكم !

ودفعنا الجنود امامهم ، الى المهجع رقم ٣٦٠ . حيث نعد ايامنا ونحصيها .

وكانت مفاجأت سارة حين وجدنا بعض الرفاق في المهجع ، وقد سبقونا اليه بساعات او بيوم . وتطلقت الوجوه ، واخذت القبل تفرقع ، وكان اول ماسألنا عنه : الحالة في الخارج ولم نكن نعلم الا مايعلمه بقية الرفاق ، فقد اعتقلنا جميعاً في اليوم نفسه .

المهجع السادس والثلاثون

كان المهجع الكبير أشبه بزريبة من زراب المواشي ، او مربط من مرابط البقر ، يتسع لخمسين رأساً من المواطنين الذي استحالوا في عهد الديكتاتورية الطاغية الى قطيع بشري ، يسام خسفاً . مقفر مجدب ، يذهب في الطول خمسة عشر متراً ، وفي العرض ستة امتار . وقد ارتفعت عن جانبيه مصطبتان للنوم من الاسمنت المسلح تعلوان مترا ، ولا تستويان . وبينهما ممر عرضه متران ، وفوق كل من المصطبتين رف طويل من الاسمنت ايضاً يضع عليه الموقوفون اغراضهم وفي نهاية المهجع مغسلة عتيقة ، والى جانبها مرحاض مكشوف لايستره باب ولا سقف ، وله اربع نوافذ صغيرة عالية ومسمورة لئلا تفتح . ونافذة خامسة انسي السجان الغليظ القلب سمرها ، وشباكين آخرين كبيرين على جانبي البـاب يفتحان في فترتي التنفس لتغيير الهواء ، وقد طلي زجاجها بطلاء ازرق مانع للرؤية . وفي الباب الكبير طاقة اسميتها لفوري طاقة الحرية ، طولها شبر ، وعرضها فتر ، مشبكة بالحديد على ضيقها ، وقد سدها الرقيب بعد يومين بقطعة من التنك وسمرها ، لئلا نتصل منها بالمهجع المقابل حيث كان اخواننا الدروز .



جلسنا فوق اغطية الرفاق ، ننتظر نصيبنا من الغطاء ، ونتبادل الحديث جداً ولهواً ، وقـد ارتاحت نفوسنا لهـذا الاجتماع وسكنت بعد وحشة . ولم تمض ساعة حتى فتح الباب ، ودخل رقيبنا الحارس ، يرافقه جندي قذف لكل منا نحن الثلاثة الجدد بنطانين هزيلين اشبه بنقاب المرأة الحسناء رقة وشفوفاً ، وبقدة من حصيرة عتيقة مهترئة ، قد اكل فأر الزمن جوانبها ، وقرض

قشها ، وكانت هذه هي كل مامدنا به السجن من غطاء ووطاء .

ومددت الحصيرة ، ووضعت الغطاءين الرقيقين أحدهما الى الارض انام عليه فوق الحصير ، وأتقي به بعض الرطوبة ، وثانيهما فوقي ، أتقي به بعض البرد ، ولم يكن من سبيل الى اتقاء الرطوبة كلها ، والبرد كله ، بهذين الغطائين الهزيلين ، وتلك الحصيرة العتيقة ، ولا بأضعافها . واستعملت حذائي مخدة لي وفعل رفيقاي مثل فعلي .. واعتمدت الى الجدار البارد وقد احكمت جلسة القرفصاء وأرخيت لفكري يقلب الامر على وجوهه . وكان اول ما دار به ان خير ما نفعل هو الاضراب عن الطعام .. ثم طردت الفكرة ، فلا بد من الانتظار بعض الوقت ريثما يتبلور الموقف ، ونعرف اتجاه الحوادث ، وحين ذاك ، نقرر الخطوة على ضوئها ، وأساسها .

وقضيت ساعة منفرداً بنفسي ، وفي رأسي المجهد تروح اسراب الفكر واضحة ومهملة ، قوية وباهتة ، لاينقطع لها مطاف .. وحلق خيالي بجناحين مهيضين فحط على أهلي : أبي ، وزوجتي ، وأختي ، وأخوي . كيف هم ، وما بهم ، ومن لهم ؟ أسئلة أطلت برؤوسها المؤلمة الحادة .. ولكنني مالبثت ان نفضت الفكرة نفضاً من رأسي ، وقلت : ماينبغي ان أضيق الدائرة في هذه الحدود القريبة ، ولا ان أنظر الى المشكلة من هذه الزاوية . ان وطني يتهدم ويكاد ينهار تحت ضربات الاستعمار المتلاحقة ، ومؤامراته .. فماقيمة ان أكون داخل السجن أو خارجه مادام الوطن مهدداً بكل مافيه ، ومن فيه ؟!!

وما قيمة ان يأكل أهلي بي ، او يجوعون بغيري ، مادمنا جميعاً مهددين بالجوع في ظل هذا النظام الظالم الآثم ؟!!

٣٧

شيء واحد يجب ان اكره ، ويكره كل رفيق معتقل ، هو ان السجن حرمنا من شرف العمل مع بقية المناضلين الشرفاء ، ضد الاستعمار ، وضد عملائه أعداء الشعب .

وشعرت بارتياح لهذه النتيجة .. وسرعان ماشاركت الرفاق ، في حلقة نتناقل الحديث ، ونتجاذب .. ونسيت ألمي وثورتي لاندمج في الجو الجديد ..

أسباب الاعتقال

* لا فرصة للرأى العام !
* ماتت الكلية الامريكية
* وعاشت الفلسفة !
* شوك الحاكم تدوسه أقدام الشعب

لم يكن هناك سبب واحد للاعتقال ، فثم أسباب كثيرة ، وكلها مما يتصل بمقال في صحيفة ، او حديث في محفل .

وكان ابرز هذه ، مقالات اربعة هي :

لاقدسية للرأي العام . حادث الكلية الأميركية . وعاشت الفلسفة شوك الحاكم تدوسه اقدام الشعب .

وما احب وانا انقل هذه المقالات الا ان اعرض على القارىء صورة صادقة عن مبلغ الضغط الذي كانت تمارسه الديكتاتورية على الحريات الديموقراطية وخاصة الصحافة ، لتخلق عند الرأي العام بمنعها النقد عقلية القطيع . ولتضمن لنفسها البقاء والاستمرار ظناً منها ان سبيلها الى البقاء والاستمرار مصرع الحرية . وسيرى القارىء من هذه الكلمات انها اقل ما يحق لصحفي ان يكتب حين تطلق الحريات الديموقراطية ، وفي اي بلد ، الا تلك التي يحكمها الارهاب الفاشي طبعاً !!

وقدسية للرأي العام

وكان المقال الاول في جريدة الصباح الحلبية - تاريخ ١ تموز ٩٥٣ عدد ٢٥٦ - حين عرض الدستور المزيف على التصويت والنقد . تناولت فيه الفقرة الثالثة من المادة الثالثة عشرة ، وقد جاء فيها : « للرأي العام قدسيته ، والقانون يحميه من العناصر التي تصرفه عن الحقيقة والخير العام ، او تشجع المنازعات بين أبناء الوطن ، او تدعو الى تغيير نظام الحكم بالقوة » قلت : « ان تفسير هذه الفقرة مطاط ، ويستطيع اي حاكم ان يسيء استعماله في وجوه كثيرة شاذة وظالمة . ومن الطبيعي ان يقوم الحزب الحاكم الذي يملك مفاهيم خاصة معينة للحقيقة والخير العام هي مبادئه ، بمحاربة كل دعـوة مخالفة لهذه المبادىء والمفاهيم ، بحجة انها تصرف الرأي العام عن الحقيقة والخير . وهكذا يصبح التفسير سلاحاً خطراً في يد الحاكم لمقاومة خصومه ، ثم ان هذه القدسية التي يضفيها القانون على الرأي العام لاتعني سوى منع التفكير الحر ، والمناقشة الحرة ، واحلال التلقي المستسلم مكانها . وهذا توجيه خطر يعود بنا الى ظلام القرون الوسطى . ولست اعتقد بعد ان للقدسية مكاناً في اي شأن من شئون الانسان » .

حادث الكلية الاميركية

ثم جاء حادث الكلية الاميركية المشهور الذي ما استقر بعده وضع الشيشكلي حتى انتهى .

وكتبت صبيحة الحادث في «التربية» هذه الكلمة :

« هذا الحادث الذي كانت الكلية الاميركية مسرحا له يوم السبت - ٥

كانون اول ٩٥٣ ـ ومثل دور البطولة فيه طلاب عرب ، يخجلون من عروبتهم ولا يخجلون من أميركيتهم !! هذا الحادث ، عجيب ، وذو دلالة بعيدة ذات اثر . فأما العجب فلكلية اجنبية تحمل هذا الاسم المكروه : اميركي تقدم على السخرية من بلد ، لايكفيها انها ترتع فيه كما تشاء داعية موجهة مبشرة ، حتى تزيد على الرتع ، الهزء به ، وطعن كرامته ، والنيل منه في مظاهر قومية !

واما دلالة النبأ البعيدة ذات الاثر ، وكدت أقول ذات الخطر ، فهى ان سم الشعوبية الذي يدسه الاستعمار في دسم الثقافة ، قد أعطي ـ للاسف ـ اثره في عقول الناشئة ، وما حادث الكلية الاميركية إلا بعض هذا الاثر .

ولقد جاء الحادث ليفتح العيون المغمضة على الحقيقة الهائلة التي تكمن وراءه ، وهي ان الاستعمار لم يعد يهددنا على حدودنا بقدر ما يهددنا في داخلنا وأعقارنا .

واما الطلاب « المتأمركون » المتأثرون بتعاليم الكلية وتوجيهها ، ابطال الحادث « الصناديد » فحسبهم حقارة انهم لم يكونوا مواطنين شرفاء ، اوفياء لوطنهم .

وهنيئاً لهم وطنيتهم الاميركية المخلصة !!»

وقد كان في اليوم الثاني ان احتج الطلاب لدى المحافظ وطالبوا باغلاق الكلية هذا الوكر من اوكار الاستعمار ، ولكن المحافظ المنفذ لاوامر الرئاسة العليا في البلاد أجابهم : انني على استعداد لاغلاق المدارس الثانوية كلها في حلب ولا اغلق الكلية الاميركية ! فأثار الطلاب الجواب الفظ ، وأضربوا ، وامتد اضرابهم واندلع ، وساح في الارض ، حتى شمل سوريا ، وكان بين الطلاب وبين

بتوى الامن حوادث ما يزال الشعب يذكرها في كثير من المرارة والاسى ، ويتساءل : أكل هذا في سبيل الكلية الاميركية ؟!!

وقد بلغ من امر زبانية العهد أن ضربوا عدداً من الطلاب امام رئيس الكلية ، ارضاء له وزلفي ! ولكن ارهاب الشيشكلي بكل صوره والوانه لم يستطع كبت صوت الشعب ، الثائر على الاستعمار الاميركي ، المطالب باغلاق المدارس الاجنبية ، تلك الاوكار الاستعمارية التي تضلل ابناءه ، وينتشر منها اعوان المستعمر وعملاؤه ، بل كانت ثورة الشعب كالنار المزغردة الشعاليل ، الساطعة المريج ، كلما خبا شواظها جاءها الارهاب يحش لها ، حتى أتت على الطاغية ، وولى في جنح ليل ، لائذاً بأذيال الفرار ، قانعاً من النتائج بما غنم وشقيقه .

وعاشت الفلسفة

وبينما الشيشكلي واعوانه يزرعون الارهاب في كل مكان اثر الحادث كتبت كلمة بعنوان : وعاشت الفلسفة قلت فيها : « ما أحفل التاريخ بقصص الظلم والطغيان ، وقتل حرية الفكر ! إنه يمتلئ حتى ليغص بها .

ذكرت هذا وانا أقلب امس في مكتبي بعض اوراقي او كتبي ، فاذا بي اعثر على صورة المنشور الذي اذاعه المنصور خليفة الاندلس في الناس ، ومنع فيه الفلسفة ، اثر مأساة ابن رشد ونفيه منها . ومما جاء في هذه الوثيقة التاريخية : « قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الاوهام ، فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق ، مسودة المعاني والاوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يؤمنون ان العقل ميزانها ، والحق

برهانها ، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً ، ويسيرون بها شتوا كل وطرقه
وبعد ان يمضي في وصفهم على هذا الاسلوب يقول : «فلما وقفنا منهم على ما هو
قذى في جفن الدين ، ونكتة سوداء في صفحة الحق المبين ، نبذناهم في الله
نبذ النواة ، واقصيناهم حيث يقصي السفهاء من الغواة ، فاحذروا وفقكم الله
هذه الشرذمة - يقصد الفلاسفة - على الايمان ، حذركم على السموم السارية
في الابدان ، ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب
اربابه ، واليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ، ومآبه .. الخ!!»

قرأت المنشور وأجلت البصر فيما حولي وقلت وقد غلبتني ابتسامة ساخرة:
ولكن المنصور قضى ، وعاشت الفلسفة !!»

وقد كان من اثر هذه الكلمة ان جاءني احد موظفي الشيشكلي واجرائه،
مهدداً في المقهى امام عدد كبير من رواده ، متوعداً بقطع لساني ويدي ان عدت
للكتابة او الحديث صراحة او رمزاً ، عن الشيشكلي . فقلت : تستطيع ان
تفعل يا صاحبي فحين تقرر الحكومة ان تكون عصابة لا حكومة ، تفعل ما هو
اكثر وابعد .

شوك الحاكم تدوسه أقدام الشعب

وخرجت وقد غلبني الالم الحانق الثائر ، فكتبت في اليوم التالي مقالاً
بعنوان : « شوك الحاكم تدوسه اقدام الشعب » قلت فيه : كثيراً ما يتفق ان
اسرح بخيالي ، ولكن دنياي التي اسرح فيها ليست بعيدة من حياتنا هذه ،
بل هي مرتبطة بها ، تمتح منها وتستقي .

خلوت امس الى نفسي وارسلتها في التاريخ تستعرض حوادثه استعراض

الواثب العجلان ، ووقفت عند ابرز احداثه ، فخرجت منها بملاحظة جديرة بالتسجيل . لقد كان تاريخ الانسان صراعاً طويلاً دامياً في نفسه وعليها، وفي الطبيعة وعليها . وفي هذا الصراع يتمثل جانب من حقيقة ضخمة وهي ان الشعوب كانت دائمة الرغبة والتوق الى حياة افضل، فهي تغفو لتستيقظ ،وتقف لتثب ، وفي كل يقظة ، وكل وثبة ، تحقق جانباً من تطورها التاريخي ، وهو ما أسميه بحركية التطور ، او حركية التاريخ . ولكن الشعوب كانت تصطدم في كل حركة من حركاتها بحكامها ، فهي ابداً في صراع مع الحاكم ، ذلك ان التطور كان يعمل بالشعوب لا بالحكام .

والنتيجة التي يخرج منها قارىء التاريخ ومستعرض حوادثه ، هي ان هذا الصراع كان دائماً بين حق الشعب ، وقانون الحاكم . ودائماً كان الحاكم يزرع الشوك ، ودائماً كان في يد الشعب منجل (١) .

وقد كان من أثر هذه الكلمة ان خصصت بموظف من الشعبة السياسية يتسقط حديثي ، ويلاحقني كظلي الملازم في رواحي ومغداي ، ثم يقدم الى رؤسائه تقريراً بما رأى وسمع .

وتراكمت تقارير الشعبة السياسية ، والمكتب الثاني الذي كان ايام الطاغية صورة أعلى من الشعبة السياسية حتى تضيق الشيشكلي واعوانه .. واعلنت الاحكام العرفية ، فكان الاعتقال .

---

(١) الحديث هنا عن التاريخ القديم . ففي التاريخ الحديث تغيرت القاعدة بعد ان حلت الاشتراكية المشكلة وجعلت الحكم آلة في يد الشعب لا في يد طبقة محدودة من طبقاته العليا ولم يعد ثمة صراع بين الحاكم والشعب .

حياة المعتقلين

* الهواء والسماء
* الطعام
* الرقيب العجيب
* اللهو والتسلية
* الخضوع للواقع
* المناقشات : ١ اسرائيل وكيف تنتهى
  ٢ الدعوة الى السلام

الهواء والسماء

لم تكن للموقوفين فرصة لاستنشاق الهواء ، ورؤية السماء ، الا ساعتين في الايام الاولى ، احداهما في بكرة الصباح ، وثانيتهما وقت الظهيرة ، ثم انقصت الى ٤٠ دقيقة .

وكنا نقضي الفرصة مع رفاقنا في المهجعين المحاذيين ، بين حديث متبادل او حركات رياضية نقوم بها تنشيطاً لاجسامنا التي لبدها القعود . وكنا نشرف من السطح على غوطة دمشق وحي الميدان وقد امتد كلسان طويل مدلى ، ولاحت عند الافق على امتداد البصر سلسلة من الجبال .

ومن الجانب الآخر كانت ترتفع الجبال المحاذية للسجن ، وهي تعلو عنه قليلا ، وكأنها تأنف ان تكون معه على مستوى واحد !

وكان هذا المنظر الخلاب : الجبال المرتفعة ، والغوطة الممتدة ، ولسان حي الميدان ، من اجمل المناظر التي ترتاح لها النفس ، وتغترف منها العين ، وكان ينسينا لبعض الوقت واقعنا السيء كمعتقلين .

ولقد مرت بنا فصول السنة جميعاً في شهر ، فمن يوم غائم مطلول لا تخلص معه الانفاس ، الى يوم مطير والسماء دانية مسفة تود لو تطبق على الارض .. الى يوم مثلج قارس البرد ، صافر الريح .. الى يوم صحو ترسل فيه الشمس شعاعها الدافيء ، فتبعث النشاط في كل حي .

ولعل أجمل هاتيك الايام ، يوم خرجنا فراعنا الضباب الكثيف وقد أطبق على الفوطة ، على مسافة قريبة منا ، ثم اخذ يشف شيئاً فشيئاً عنها ذلك منظر يجب ان يرى حتى يعرف .

ويوماً آخر ، غطى الثلج فيه الارض كلها ، ببياضه الناصع النقي. وكانت لحظة من لحظات الطبيعة في اجمل أثوابها . شيء واحد كان يعكر هذا الصفاء والنقاء ، هو السجن الكريه ، فقد كان أشبه بلطخة قذرة في ثوب نظيف .

الطعام

وكان طعامنا محدوداً . وهو طعام السجناء جميعاً ، وكانت اكثر الاطعمة وروداً حب الفاصوليا ، حتى تقززت نفوسنا منها ورفضنا تناولها ، الا أحد الرفاق الذي أصر على اكلها ، وتسميتها بالغذاء الكامل !

وكان الطعام مليئا بالحصى الصغير ، ثم تبين لنا ان من اساليب التعذيب ـ وقد افردت لها فصلا خاصاً ـ ان يوضع الحصى في الطعام ! وكان الشاي طعام الصباح الوحيد ويؤتى به في حلة (١) يحملها جنديان . ولم يكن صافياً بل مشوباً واقرب في لونه الى المهل . وكانت الحلة قذرة يعلو حوافيها الوسخ. وقد امتنعت مع بعض الرفاق عن تناول هذا الشاي منذ اليوم الاول

---

(١) قدر كبير يستعمل للطبخ .

وحتى اليوم الآخير .

وكانت الفاكهة مقصورة على نوع من هذه الانواع الثلاثة : برتقال تفاح . موز . وكان نصيب الواحد منا قطعة واحدة ، ولقد يصبح نصيب الاثنين في بعض الاحيان برتقالة او تفاحة .

وفي الايام الاخيرة سمح لنا بشراء بعض انواع الطعام المجفف والفاكهة بواسطة احد موظفي السجن ، فبادرنا جميعاً رغيبين ، وتكدست فوق الرف الاطعمة حتى اصبح المهجع اشبه بسوق ، ولم يكن يزعجنا ويثيرنا الا الاثمان الفاحشة التي كانت تؤخذ ثمناً لما نشتري . فقد كان كيلو البرتقال السيء بنصف ليرة . والكيلو نصف !!. أي ان كيلو البرتقال الحقيقي كانت قيمته تبلغ الليرة سورية . وكذلك التفاح والموز ، والاطعمة المحفوظة من سردين ، ومربيات. وهذا غيض من فيض .

ولم يسمح للموقوفين في الايام الاولى بالدخان ، ثم سمح بالقليل منه يتقاسمه المدخنون في غير رضا . فقد كان كل واحد يطمع في اكثر من المساواة .

الرقيب العجيب

وكان حارسنا الرقيب علي .. أعجب ما في السجن . أسمر اللون مستطيل الوجه ، غليظ المشفرين ، لعينيه بريق وفيها طيب ، متفخم اللفظ ، متصنع الحركة ، له صياح بالمعتقلين او الجنود يقطع أصفق الحناجر . وكنا جميعاً خاضعين لأمره . وكان له نفوذ في السجن عجيب ، وامر مطاع ، فهو يستطيع ان ينزل من يشاء الى الطابق الاسفل ليقذف به في الغرفة المنفردة . ولقد يقطع عنا الماء جزاء لان احد المعتقلين خالف له امراً ، فكنا

مضطرين لمسايرته ، ومما زحته ، وترويضه ، وقد تمكنا من ذلك آخر الامر وبعد جهد ، واحتمال الكثير من جلافته وفظاظته .

اللهو والتسلية

ولم يكن لنا بد من اختراع وسيلة للهو نقطع بها الوقت ، ونقتل الزمن . والحاجة ام الاختراع كما يقال . وقد صنع بعضنا من الواح الصابون شطرنجاً وصنعت احجاراً للطاولة ، وزهـر اللعب . ثم رسمنا الشطرنج والطاولة على الغطاء بالصابون . وصنع احد الرفاق من قطعة من الورق المقوى ورق اللعب . وكانت هذه الالعاب من الوسائل التي خففت عنا ، ولم تشعرنا بالضيق الدائم . وجعلت للحياة لوناً وطعماً ، وبعض اللذة ، وان تكن لذة فارغة .

الخضوع للواقع

على ان هذا كله ما كان ليغير من الواقع شيئاً . فقد كنا نشعر بجفاف الحياة ورتيبها شعوراً مضنياً ساحقاً . وكانت الايام المقيدة بعبودية الخضوع المستسلم للواقع تسقط من حساب الزمن كما تسقط حبات المسبحة ، لا نحس لها لوناً ولا نشعر فيها بتلك الرابطة الحية التي يشعر بها الانسان نحو أيامه ، كالحـة كانت أم مشرقة .

وكنا كثيراً ما نمل هذه الرتيبية فنعمد الى الصخب والضجيج . أو يربو في نفوسنا الشعور بالضيق والركود فنقتله بالثرثرة .

وكان اكثر ما يرهقنا انقطاع الانباء عنا . فنحن نعيش في عالم آخر لا رابطة بينه وبين عالم الناس . عالم ضيق محدود ، خانق الحياة . وقد تصلنا بعض الحوادث على لسان جندي همساً ، فنقوم لها ونقعد ، ونأخذ في عرضها ومقارنتها

سوحاليا ومستحاتها ، ونضم المتشابه منها بعضه الى بعض ، ونجمع ما يمكن ان يأتلف ، ونعمل الخيال فيما نراه ناقصاً ، لنملأ الفراغ ونسد الثغرة .

وكنا اذا ما تدجى علينا الليل وسلكنا الكرى في غمراته انطرحنا كوتى أعوزتهم القبور .

وكنا نشفق من البرد والرطوبة ومن عواقب التعرض لهما ، فلا نخلع ثيابنا في نوم أو يقظة .

المناقشات

وكانت لنا في أكثر الايام حلقة نجتمع فيها ويطرح أحدنا موضوعاً للبحث نناقش فيه ، ويبدي كل منا وجهة نظره . ومن هذه المواضيع : القومية والامة ، والاشتراكيه ، الخيالية والعلمية .

وهناك موضوعان استأثرا بالجزء الاوفى من أوقات المناقشة ، وهما : اسرائيل وكيف تنتهي ؟. والدعوه الى السلم وهل تخدم البلاد العربية في مرحلتها الحاضرة ؟.

وسأعرض هذين الموضوعين في خلاصة لا تهمل بعض التفاصيل لسببين : اولا لانهما من المواضيع الهامة التي تعرض لنا في هذه الفترة من حياتنا وثانياً لانهما يوضحان وجهة نظر الجيل الجديد كله . فقد خرجنا منهما على اجماع في الرأي تقريباً .

اسرائيل وكيف تنتهي ؟

خرجنا من المناقشة بنتيجة رئيسية وهي أن وضع القضية الفلسطينية بشكلها الحاضر ، ومن الاساس وضع مخطىء ، فاضح الخطأ . فالقضية الفلسطينية

ليست قضية مستقلة قائمة بذاتها ، وانما هي ترتبط ارتباطاً وثيقاً لا ينفصل بالاستعمار العالمي ، والرأسمالية العالمية . وان ينتهي النظر اليها كقضية مستقلة الا الى تثبيت اسرائيل ، ومدها بقوة الحياه ، وفسح المجال أمام الاستعمار ليجعلها المرتكز الحيوي له في منطقة الشرق الاوسط ، بما تملك من قوة الدولار الامريكي ، ودعمه الاستعماري العالمي .

ان وضع القضية الفلسطينية الصحيح مرتبط بالاستعمار والرأسمالية في العالم . وهي ليست الا جزءاً ضئيلا منه ، فثمة غير فلسطين ، وغير شعبها ، بلاد كثيرة ، وشعوب كثيرة يستذلها الاستعمار ، ويغتصب ارضها . وكل عدوان على حقوق الشعوب في أية منطقة من مناطق العالم ، وفي اية بقعة من بقاع الارض هو صورة من الرأسمالية المستعمرة ، أو الاستعمار الرأسمالي . وهو جزء من القضية العامة للاستعمار والرأسمالية .

من هذه الزاوية فقط نستطيع اي نفهم القضية الفلسطينية على حقيقتها في ماضيها ؛ وحاضرها ، ومستقبلها .

والآن نضع هذا السؤال : من المسئول عن قيام اسرائيل ؟

تبدأ المسئولية الحقيقية منذ الحرب العالمية الاولى ، وعلى وجه الدقة منذ منح بلفور وعده المشئوم بتهيئة فلسطين كوطن قومي للعنصر اليهودي . ولم تلبث امريكا ان تبنت تحقيق الوعد الانكليزي .

وهكذا نجد ان الاستعمارين الانكليزي والامريكي قد تعاونا على اغتصاب فلسطين ، ومنحها لليهود ، ولئن كان الرجل الانكليزي قد بذرها ، فقد حملها البطن الامريكي ووضعها !

ولنستعرض بعض التفاصيل .

انكلترا قامت بدور الاب . ولكن دورها الابوي لم يقتصر على البذرة ـ الوعد ـ بل تعداه الى الرعاية والعناية . فقد شجعت الهجرة اليهودية الى فلسطين خلال انتدابها . وفتحت الابواب امام كل مهاجر وساعدت اليهود على امتلاك الاراضي العربية ، وبناء المستعمرات وحيازة السلاح ، تمهيداً لتحقيق وعدها .

وأما امريكا الام فقد كان دورها ـ كالعادة ـ اطول في المأساة ، وحين نقول امريكا فنحن نعني صراحة الرأسمالية الامريكية ، والاستعمار الامريكي! ولئن كان الشعب قد ايدها وناصر القضية الصهيونية . فبعوامل التضليل التى تتعرض لها كل الشعوب في العالم الرأسمالي ، حين تسخر الرأسمالية وسائل الدعاية جميعاً لاضفاء صبغة معينة على ما تتبنى من قضايا .

ولقد قام الكونغرس الامريكي ، بضغط الرأسمالية بدور فعال في نصرة الصهيونية . فقد اصدر عام ١٩٢٢ قرارا بالموافقة على فكرة انشاء الوطن القومي لليهود واتبعه بقرارات مشابهة .

ثم اعلن الرئيس « ويلسن » رئيس الولايات المتحدة انه يوافق بصراحة على خطة انكلترا في فلسطين وموقفها . وكان هذا تأييداً صريحاً لوعد بلفور . ثم قام عدد كبير من اعضاء الكونغرس عام ١٩٤٢ يطالب الرئيس روزفلت باعادة انشاء الوطن القومي لليهود . وفي عام ١٩٤٥ اتخذ الكونغرس قراراً بالموافقة على هجرة اليهود الى فلسطين والسماح لهم باستغلال اقصى امكانيات البلاد الزراعية والصناعية ليتمكنوا من المباشرة

في اعداد فلسطين وطناً قومياً لهم !

ثم ما لبثت القضية الفلسطينية ان خرجت من صعيدها الانكلو اميركي الى صعيدها الدولي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . وقد بدأ البحث فيها من نقطة انسانية بحتة ، تتعلق بمشكلة اللاجئين المشردين في اوربا ، وكان الاتجاه يهدف الى حل مشكلة هؤلاء بقبولهم مواطنين في انكلترا وامريكا واستراليا وكندا ، وفي بعض بلدان امريكا الجنوبية ، الا ان الرئيس الامريكي السابق روزفلت ما لبث ان حول اتجاهه بضغط الرأسمالية الامريكية ، وسخر لهدف الانساني لخدمة الصهيونية ! وما ان بدأ البحث في مشكلة مشردي اليهود في اوربا حتى رفض الرئيس الامريكي البرنامج الذي اقترحه بنفسه ، ويقضي ، باستيطان هؤلاء المشردين من اليهود في مختلف بقاع العالم ، واعلن روزفلت ان قادة الصهيونية على حق في رفضهم هذا الحل ، اذ لا بد لفلسطين من ان تصبح عاجلا أم آجلا ملجأ اميناً لليهود . فهم بهذا الحل فقط يجمعون الاموال من اغنياء امريكا لتحقيق هذا الهدف ، في حين يخفقون في الحصول على ملايين الدولارات من هؤلاء الاغنياء اذا كان ثم برنامج عالمي لايواء المشردين جميعاً ـ من يهود وغيرهم ـ في ملجأ واحد او ملاجيء عدة » .

وهكذا تبنى روزفلت صراحة ، وبضغط الرأسمالية الاميركية المناصرة للحركة الصهيونية ، اقامة اسرائيل ، وتحقيق وعد بلفور .

وجاء بعد روزفلت ترومان . فتبنى الحركة الصهيونية بحماس اشد واقوى حتى انه اتخذ قراراً منفرداً بالسماح لمئة الف يهودي بدخول فلسطين خلال انعقاد مؤتمر السلم العالمي في باريس .

ولم تقف تدخل الرأسمالية الامريكية عند حد الضغط ، وتجنيد الرسميين الامريكيين في خدمة الصهيونية ، بل ان عدداً من المؤسسات الاقتصادية دخل المعركة سافراً ، فأعلنت الشركة الاقتصادية ان صحراء النقب يمكن اذا زودت بالري ـ وهذا غرض مشروع جونستون ـ الاستفادة منها ، وان يستوطنها عدد كبير من اليهود المهاجرين .

وقامت شركة « فايرستون » للمطاط بدور كبير في كسب بعض الاصوات لمصلحة اليهود حين عرض مشروع التقسيم على التصويت في هيئة الامم ، فقد ثبت ان هذه الشركة استغلت نفوذها الكبير لدى ليبريا التي تملك فيها مزارع واسعة للمطاط ، لحملها على تأييد التقسيم بعد أن كانت معارضة ؛ وقد كان ما أرادت الشركة

وثمة حوادث اخرى كثيرة لاتحصى ، تدل على مدى التأييد الذي لاقته الحركة الصهيونية من امريكا ، حتى بلغ بترومان ان وجه رسالة الى سفيره « ماكدونالد » في اسرائيل عام ٩٤٨ قال فيها « .. وأرجو ان تزودني ياعزيزي باستمرار ، بالمعلومات المتعلقة بشحن الاسلحة ، والوقت المناسب للاعتراف الكامل باسرائيل ، وانواع المساعدات المطلوبة للنهوض بالدولة الجديدة !!» .

وحتى بلغ بالحكومة الامريكية ايضاً انها طلبت عام ١٩٥٠ من الحكومات العربية معلومات عن قواتها العسكرية ، وما تملكه من معدات حربية ، وتعهدت بكتمان هذه المعلومات وجعلها جزءاً من الاسرار الحربية الامريكية ؛ فقدمت الحكومات العربية الى الحكومة الامريكية ما أرادت ثم كانت حوادث الحولة واجتمع ممثلو الدول العربية العسكريون في واشنطن ، وممثل اسرائيل العسكري

ان رئاسة الجنرال رايلي كبير مراقبي الهدنة آنذاك ، فادعي ممثل اسرائيل ان القوات السورية قامت باعمال عسكرية متفرقة في عدة مناطق من الحدود، فرد رايلي بأن هذا مستحيل لان سوريا لا تملك هذا العدد من القواد لتستخدمها دفعة واحدة فما كان من المندوب الاسرائيلي الا ان ابرز المعلومات والارقام التي قدمتها الحكومة السورية الى امريكا مع بقية الحكومات العربية وكانت فضيحة !!!

وهنالك المساعدات العسكرية الى اسرائيل ، فقد بلغ مجموعها العام بين اعوام ٩٤٨ - ٩٥٣، مليارا و٣٩٥ مليون دولار ، منها ٢٩٥ مليون دولار قدمتها امريكا هبات حكومية وقروضاً ومساعدات اقتصادية ، وفنية ، وآلات زراعية وصناعية ، و٦٠٠ مليون دولار تبرعت بها المؤسسات الرأسمالية الامريكية وسمحت الحكومة طبعاً بتحويلها الى اسرائيل و ٥٠٠ مليون دولار ريع سندات القروض . ولا يدخل في هذا الحساب المساعدات العسكرية من طائرات ومدافع ، ومدرعات ، ومعامل للذخيرة .

ولقد كشف رئيس الجامعة العبرية السابق في القدس - وهو يهودي منصف الى حد ما - عن حقيقة دور امريكا في قيام اسرائيل وتشريد العرب، فقد كتب يقول « ان اليهود الارهابيين هم وحدهم المسئولون عن الجرائم الوحشية التي حدثت في الارض المقدسة .

ولكن من المسئول عن هؤلاء الارهابيين ؟ ان كل واحد منا نحن اليهود يحمل جزءاً من المسؤلية ، ولكن الوزر الاكبر يقع على عاتق الامريكيين الذين ساندوا هؤلاء الارهابيين ، ومن بينهم فريق من الشيوخ واعضاء

الكونغرس ، ورجال الصحافة ، ودور النشر ، والكتاب ، وعدد من كبار الاغنياء الذين ساعدوا الحركة مادياً ومعنوياً . »

هذا موجز سريع ، وملخص يسير يوضح مسئولية امريكا بالارقام في اغتصاب الارض العربية وتشريد أهلها .

والسؤال الذي يقف الآن على كل لسان هو مامصلحة الاستعمار في اقامة اسرائيل ؟

حين منح بلفور وعده لليهود كشفت صحيفة مانشستر غارديان ماوراء هذا المنح فكتبت تقول : « ان انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين سيكون في مصلحة بريطانيا لانه يحمي قناة السويس الانكليزية من أي اعتداء . »

وأما الرأسمالية الامريكية فقد استغلت العواطف القومية العنصرية عند اليهود لتقيم لها مرتكزاً استعمارياً في الشرق الاوسط تسيطر منه على أسواقه وتتغلغل . وهي تريد ان تجعل من اسرائيل منطقة توزيع لبضائعها . وقد نقلت بعض الشركات فعلاً جزءاً من معاملها الى اسرائيل لتوفر بالانتاج المحلي اجور النقل الباهظة ، فيكون بمقدورها مزاحمة البضائع الاجنبية والوطنية على السواء كما تريد الرأسمالية الامريكية من اقامة اسرائيل جعلها مرتكزاً لقواعدها العسكرية كجزء من استراتيجيتها الحربية في العالم .

وثم ناحية اخرى هامة بالنسبة للاستعمار ، وهي ان قيام اسرائيل انتهى الى ان يخدم بعض رجالات الطبقات الحاكمة في البلاد العربية - المتفقة المصلحة الاستعمار - فقد سلمها القميص الذي تلوح به كلمات تحركت القوى الشعبية وكلما برزت التناقضات الطبقية الحادة ؛ لتوجه النضال نحو اسرائيل ؛ وتخنق

الوعي الصحيح على الصراع الطبقي ، ولتقود الشعب العربي في اتجاه يخدم بقاءها ومصلحتها . فهي باسم العدو المتربص على الحدود تحاول خنق الحركات الشعبية هاتفة بضرورة الوحدة ، والصف الواحد .

على ان هذا لا يعني أبداً ان يقف الشعب موقف المتفرج من مقاومة اسرائيل . لا . بل يجب ان يعي الاسباب العميقة التي تدفعه الى المقاومة ـ وهي غير الاسباب التي يضعها له بعض حكامه ـ دون ان ينصرف عن صراعه الطبقي ضد الاقطاعية المستثمرة ، والمتحكمة في العالم العربي .

يجب ان يعي الشعب هذا بدقة . وان يرى عدوه الحقيقي في شخص الاستعمار ، ليخرج من نضاله وكفاحه ظافراً منتصراً على العدو الواحد : الاستعمار ، في صوره المختلفة ، والوانه المتعددة ، ووجوهه الكثيرة .

نخرج من كل هذا بنتيجة رئيسية وهي ان اسرائيل جزء من الاستعمار العالمي ، وليست منفصلة عنه . وهي مرتبطة المصير معه ، فلا انهيار لها الا بانهياره .

واذن ، فالاستعمار هو عدونا الاول ، . هو امريكا ، والدول الدائرة معها في هذا الفلك الاستعماري ، هو الرأسمالية الجشعة التي لا تعيش الا في دماء الشعوب ، ومن لحومها ، وهو ـ الاستعمار ـ يستطيع ان يخلق لنا في كل يوم اسرائيل جديدة ، مادام قوياً مسيطراً ، وهل وجود القوات الانكليزية في القنال ، او في العراق ، او في شرقي الاردن ، والقوات الفرنسية في تونس ؟ والجزائر ومراكش ، بأقل من وجود اسرائيل ؟

واذن . مادامت اسرائيل موجودة بالاستعمار ، فلا طريق الى القضاء عليها الا بمقاومته في أصله ومستقره .. في امريكا ، اسرائيل الكبيرة .

واذن . فكل تعاون مع امريكا ، او انكلترا ؛ هو تعاون مع الاستعمار وهو تعاون بالتالي مع اسرائيل ، وكل معاهدة معه . معاهدة معها. وكل مساعدة منه ، مساعدة منها . وهو بالتالي ايضاً خيانة للشعب،وخروج على مصلحته الوطنية العليا ، وسير بسياسته في اتجاه يخدم اسرائيل ، ويمدها بقوة الحياة .

إن على الشعب العربي ان يفهم هذه الحقيقة ، وان يقاوم الاستعمار بكل قواه ، في مشاريعه العسكرية ، وفي احلافه الحربية، وفي مساعداته الاقتصادية وغير الاقتصادية ، وفي رساميله الاجنبية .. وان يرى في حركته هذه جزءاً من الحركات الوطنية الاخرى في العالم كله ، فيمدها وتمده ، ويقويها وتقويه. فلا بقاء لاسرائيل مع انتصار هذه الحركات ، وانهيار الاستعمار .

★

الدعوة الى السلم ، وهل تخدم البلاد العربية في مرحلتها الحاضرة ؟

تقول القاعدة القانونية القديمة : « لا يرتكب الجريمة الا من يفيد منها» وهي تصح ان نرتكز اليها في موضوعنا ، لتفسير الدعوتين : دعوة الحرب ، ودعوة السلم ، ومن يفيد من كل منها .

الحرب مصلحة من ؟ والسلم مصلحة من ؟

١ - الحرب نتيجة من نتائج الصراع بين الرأسماليين من اجل الربح. فالمعروف ان الرأسمالية تبيع سلعها للمستعمرات والبلدان المتأخرة بارباح فاحشة ، وهي في أمس الحاجة الى اسواق جديدة كلما تضاعف ربحها ، وتركز رأسمالها ، وازداد بالتالي انتاجها ، وللحصول على هذه الاسواق لا بد من إعادة تقسيم العالم . لا بد من الحرب .

فالحرب إذن مصلحة الاستعمارية الرأسمالية. مصلحة الشركات اللصوصية في امريكا وانكلترا وغيرهما ، التي تجهد في زيادة ارباحها الفاحشة .

تقول احصائية رسمية ان ارباح هذه الشركات في امريكا بلغت خلال سنوات الحرب الثانية الخمس « ١٠٧ » آلاف مليون دولار . ولكن ما ان انتهت الحرب حتى تقلصت هذه الارباح تقلصاً راع الرأسماليين الامريكيين فعمدوا الى « الحرب الباردة » ليجعلوا العالم من خوف الحرب في حرب . وابعدوا الشعوب نفسياً لمجزرة جديدة . وبهذا استطاعت الشركات الاحتكارية منذ عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٠ ان تربح « ١٥٨ » الف مليون دولار .

وقد كشفت مجلة « نيويورك مجازين » ان ارباح الشركات – كما جاء في الاحصائيات الرسمية – بلغ عام ٩٣٦ « ٦٥٠٠ » مليون دولار . وعام ٩٤٤ « ٢٤٣٠٠ » مليون دولار . وعام ٩٥١ « ٥٠٠٠٠ » مليون دولار .

وفي عام ٩٥٣ ارتفعت ارباح ٤٠٠ شركة احتكارية امريكية ٢٥ في المئة عنها في عام ٩٥٢ . وكتبت مجلة « نيشن بزنس » لسان حال الغرفة التجارية الامريكية تقول : « ان سيكلوجية الحرب هي اقوى واقع للنشاط التجاري! »

ومنذ نشبت الحرب الكورية ارتفعت ارباح هذه الشركات ارتفاعاً هائلاً ، ولكنها ما لبثت ان تقلصت بعد وقوفها مما اضطرها الى خفض الانتاج وتسريح العمال ، حتى بلغ عدد العاطلين عن العمل في امريكا اليوم ٦ ملايين عامل كما صرح رئيس الصناعيين الامريكيين

وهكذا نجد ان الدم الانساني المسفوح هو وحده الذي يؤمن لهذه الشركات ارباحها ، ويحقق اهدافها .

والآن من يفيد من السلم ؟

لقد اصبحت الحروب حروبا عامة تشمل الانسانية كلها او معظمها ، منذ أصبحت للاستعمار صفة العالمية . ولا يفيد من هـذه الحروب كما قدمنـا إلا الشركات الاحتكارية . اما الخسائر من قتل وتشويه ، وخراب شامل وانهيار لقيم الحياة كلها ، فتدفعها الشعوب . وامامنا مثل حي هو الحرب في الهنـد الصينية . فما مصلحة الشعب الفرنسي او الامريكي فيها ؟ انها من جانب حرب استعمار ، ومن جانب آخر حرب تحرير وطنية . ولكن الاحتكاريـين الامريكيين مع ذلك يجن جنونهم لمجرد فكرة تحرر شعب الهنـد الصينية ، لان المطاط فيها – وهي اغنى بلاد العالم به ، وبالصفيح والارز – تستخرجـه شركات امريكية . وفي سبيل هـذه المصلحة الاستعمارية ، تحاول امريكا جاهدة ان تجند العالم كله – عالمها الحر !!! – لتخنق هذه الحركة الوطنيـة وتقضي عليها .

السلم اذن وهو عدم الحرب ، مصلحة الشعوب كلها ، يخدمها ، وتفيدمنه وليس لشعب مصلحة في ان يقتل ويُقتل ؟!

غير ان اعتراضين وردا على فكرة الدعوة الي السلم ، تصح مناقشتهما ، وهما كل ما يورده خصوم الدعوة من مضللين ومأجورين .

يقولون ان الدعوة الى السلم يستثمرها الاتحاد السوفياتي ، ونحن نريد الحياد في موقفنا من العالم . ويقولون ايضا ان الشعب العربي في حالة حرب مع عدو غاصب هو اسرائيل العدوانية ، فكيف ندعو الى السلم ، ونحن في حرب واحوج الى حشد جهود الامة في سبيلها ؟

والرد على الاعتراضين واضح قريب ، لا يحتاج الى طويل عناء وتفكير . فالقول بأن الاتحاد السوفياتي يستثمر الدعوة الى السلم قول مخطيء من الاساس وفيه مغالطة اقرب الى مغالطات الاستعمار في منطقه البهلواني . ان السلم مصلحة الشعوب كلها ، لا مصلحة الاتحاد السوفياتي وحده ؟ صحيح انه يؤيد الدعوة الى السلم ، بل ويتبناها كجزء من سياسته السلمية ، ولكن هل تخدمه الدعوة اكثر مما تخدم اى شعب آخر لنقول مع القائلين باستثماره لها ؟

انك لا تستثمر قضية تؤمن بها ، وتعتبرها جزءاً من وجودك ، ويرتكز اليها كيانك الانساني .. وإنما تستثمر قضية ينطق بهـا لسانك ولا تبلغ شغاف قلبك .

والاتحاد السوفياتي مؤمن بالحرب لسبب بسيط ، لا ينكره منكر ، هو ان شعوبه دفعت أفدح ما دفعته الشعوب في حربها مع برابرة النازي . دفعته خراباً عم ارضها ، وتدميراً شمل مدنها وقراها . ودفعته ملايين من القتلى والجرحى ، ومن المشردين والمشوهين .

لقد ذاق الاتحاد السوفياتي ويلات الحرب ، وصعابها ، وخرج منها وهو اشد ما يكون ايمانا بالسلم ودعوة اليه .. بينما ذاقت امريكا طعم الحرب بارباحها الفاحشة ، وخرجت منها وهي اشد ما تكون ايمانا بها ، ودعوة اليها .

ولقد بلغ من ايمان الاتحاد السوفياتي بالسلم انه اعتبر الدعوة الى الحرب في قرار تاريخي مشهور عام ١٩٥٢ ، اتخذه المجلس الاعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية - جريمة بشعة ضد الانسانية ، ونص على محاكمة المتهمين بالدعوة الى الحرب ، كمجرمين ضالعين في الاجرام .

وبلغ من ايمان امريكا بالحرب انها ما كادت الانسانية تخرج من حربها الثانية ، الا وتطلعت الى الثالثة ، تريد ان تزجها من جديد في اتونها اللاهب!!

ثم ان مصلحة الشعوب الصغيرة الضعيفة التي لا تملك في الميدان الدولي وجوداً الا وجود الكرامة الانسانية ، لا القوة ، مصلحة اكبر واعظم في تحقيق السلم والدعوة اليه .

فشعوب الاتحاد السوفياتي تملك في حالة الحرب ان تدافع عن نفسها ، وترد العدوان الاستعماري على ارضها ، اما نحن فهل نملك امام وحشية القنبلة الهيدروجينية او الذرية ؟ الا ان نذهب لقمة يسيرة في اشداق الاستعمار الامريكي؟

انها حقيقة من حقائق الدعوة الى السلم . فالشعوب الصغيرة اكثر فائدة منها ، واعظم ربحاً .

هذا رد . ورد آخر على القول باننا في حالة حرب مع اسرائيل، والدعوة الى السلم تتعارض مع هذه الحالة .

ان الدعوة الى السلم تعني بشكل واضح ومحدد ، منع حرب عالمية معينة ، هي الحرب الامريكية التي تعدها في سبيل السيطرة على العالم ، وحرمان الشعوب سيادتها وكرامتها ، ومستقبل حياتها . ولكنها لا تعني ابداً منع حروب التحرير الوطنية او الاستسلام للناحبين ، والتمسك بالدعوة الى السلم امام العدوان . من المبادىء التي يؤمن بها كل شيوعي في نضاله ، الدعوة الى السلم. فكل شيوعي داعية الى السلم كجزء من ايمانه ومعتقده ــ وليس كل داعية للسلم شيوعياً ــ ولكن هذا لم يمنع شيوعيي الهند الصينية من مقاومة الاستعمار الفرنسي والامريكي في حرب يقف العالم كله معجباً امام بطولاتهم فيها .

الدعوة الى السلم لاتعني ان نسكت على عدوان اسرائيل ، ولا تعني أن نقر وجود القوات الانكليزية في القنال ، ونسكت على معاهدات الذل مع العراق وشرقي الاردن ، وليبيا . ان الدعوة الي السلم تعني على وجه الدقة منع حرب وحشية تدميرية تعدها امريكا الى العالم .

وهنالك مصلحة اخرى للشعب العربي خاصة ، في الدعوة الى السلم . فان منع الحرب يعني تخبط الاستعمار ، وانهياره ، فهو لايعيش الا بالحرب كالسمك يموت اذا أخرجته من الماء ، وانهيار الاستعمار معناه كما انتهينا في المناقشة السابقة انهيار اسرائيل ، وهكذا فان الدعوة الى السلم تعني شيئاً آخر غير منع الحرب ، وابعاد شبحها الرهيب .. تعني انهيار الاستعمار بكل وجوهه وألوانه وفي كل مواقعه ومراكزه ومن هذه الوجوه والمواقع : القوات الانكليزية المعتدية في القنال . ومعاهدات الذل مع شرقي الاردن والعراق وليبيا والقوات الفرنسية في المغرب العربي . واخيراً اسرائيل ، هذه القلعة الاستعمارية الحصينة بالدولار !!

قبائل الحياة

الساول ..

.. هو قبر الحياة . غرفة منفردة اضيق من كف الشحيح ، معتمة اشبه بكهف من كهوف الجن المرعبة غير ذي نوافذ ولا باب . قـد اطبقت عليها حدرانها كأنها تهم بأن تبتلع هذا الفراغ الضئيل . يجثم عليها الظلام كثيفاً كجلد الفيل ، وبكل مافيه من ثقل موحش بليـد ، ولا ينعش هذه الظلمة الخانقة الاشعـاع باهت ضعيف من نور ، يتسلل كلص مذعور من الفتحة الضيقة المشبكة بالحديد في الباب المصفح . وهـو رطب رطوبة تـكاد تحس بالنظر . حدثني صديق امضى فيه خمسة وعشرين يوماً ، في مرة سابقة ، قال: كنت لا ارى في هذا القبر من معالم الحياة الا وجه السجان الاعجف ، ذي السحنة الباهتة كقطعة عتيقة من اثاث منزل عتيق ، وهو يقدم لي طعامي اليومي وكنت اتضيق ، واحس بالحاجة الى مكان افسح احساس المشرف على الموت خنقاً ، بالحاجة الى الهواء يعب منه ويملأ رئتيه .

وكنت انتظر السجان الغليظ يحملني كل يوم الى غرفة التعذيب ، وانا احس بالسياط الموعودة تلهب خيالي قبل جسدي .

ولقد تتراءى لي حين يبلغ بي الضيق مبلغه الخانق ، اشباح سوداء ، ترقص في الظلمة الكثيفة ، وتطبق علي وحدتي الوحشية ، فاضطرح ، اود لو ابتلعتني العتمة او غارت بي الارض .

انه قبر كل ما فيه : الظلام الكثيف ، والجدار البارد ، والرطوبة المحسوسة ولن يبلغ الوصف ان يعطي صورة عنه صادقة .

وفي السجن منه ثمانية عشر قبراً . وستة قبور اخرى اشد هولاً ففيها مراحيض مكشوفة تفوح منها روائح النتن والقذر كلما اطلقت المجارير . واربعة قبور اخرى يتسع كل منها لموقوفين اثنين معاً .

ألوان من التعذيب

* الجلد . عقر الاصابع . الظلام الدائم . السحب على الوجه . العصا . برميل القذر . التكسير . الكهرباء . الحمام والحصى مثل : الدروز الجرمي

لعل أرهب ما في سجن المزة ـ وغيره من سجون الارهاب ايام الطاغية الساقط ـ اساليب التعذيب والوانه ! فقد برع فيها عدد من زبانيته ومأجوريه بروعاً معجزاً ، حتى اصبحت لهم خبرة واسعة في التعذيب والارهاب ، ودراية كبيرة في بث الذعر والخوف ، وحمل الموقوف على الاعتراف قسراً بما لم يرتكب . ولايدانيهم في هذا الا قراصنة النازي ، او برابرة اليهود في اساليبهم الوحشية التي ما يزال يذكرها العالم ونذكرها ، في كثير من التقزز والألم .

واني اذ اعرض على القارىء الواناً من التعذيب وصوراً ، فلكي يعرف على وجه الدقة ما كانت تمارسه الديكتاتورية العسكرية في سجونها من ضغط رهيب ، وتعذيب وحشي ، وكأن المواطنين الذين يعيشون في هذا البلد،ولهم نفس حقوق الحاكم ، قد استحالوا الى عدو غاصب . بل اني لاذكر للقارىء وفي كثيرمن الاسى ان عدداً من اليهود الموقوفين على الحدود والمتهمين بالتجسس كانوا يعاملون في السجن معاملة اقرب الى الانسانية من معاملة المعتقلين والموقوفين

المواطنين!! فهل هنالك اجرام وخيانة ابعد من هذا الاجرام وهذه الخيانة؟!!
.. وهذه الوان من التعذيب :

الجلد :

يجلد الموقوف بسوط حاد كنصل سكين، ويستمر الجلد حتى تكل يد الجلاد ويهوي الموقوف الى الارض وقد مزقه الألم الجارح ، واخذته الغشية الغاشية فيشال ويقذف به في « السلول » قبر الحياة !

ولقد يضرب الموقوف بعصا ذات عقد ، ينتهي طرفها كرأس مخروز مدبب حتى تتمزق رجلاه ، وينفر منها الدم غزيراً فيصب عليها الماء البارد اوالكحول ليحس للألم وخزاً حاداً ، ذي مخالب ونيوب !

هفر الاصابع

تبسط يدا الموقوف على الارض وراحتاه اليها . وتوضع فوق عقد اصابعه عصا غليظة طويلة ، يقف عليها جندي غليظ من طرفيها ، فيدحرجها حتى تكاد اصابع الموقوف تتحطم ، او تتحطم فعلاً . ويمسك به خلال هذا جندي من كتفيه بقوة ليمنعه من الحركة والتملص . ثم يربط عند الكتفين بحبل غليظ وتشد يداه الى خلف ، ويقذف به في الغرفة العمياء !!

الظلام الدائم :

يوضع الموقوف في الغرفة المنفردة ـ السلول ـ أياماً طويلة ، ويحرم من استنشاق الهواء او رؤية السماء ، حتى تنهار نفسه ، ويتصدع كيانه جميعاً ، ويحس الحاجة الى الهواء والسماء ، حاجة المخنوق اليهما .

السحب على الوجه :

يربط عدد من الموقوفين بحبل غليظ ، بسيارة « جيب » ، وتنطلق السيارة تسحب من ورائها الموقوفين ، وهم يتشحطون على الارض ، وتتفجر رؤوسهم بالدم .. وقد استعملت هذه مع الموقوفين من الشيوعيين في تدمر .

العصا

استعمل هذا اللون مع عدد من الطلاب . فقد أدخلت ، بوحشية لا يبلغها الوصف ، عصا عليظة في أدبارهم !!! وقد أثار الحادث المواطنين ، فما كان من الطاغية الساقط الا أن أرسل مفتشين للتحقيق ، ووجدا آثار الدم على العصا ، ولكن التحقيق الصوري لم يأخذ بالجريمة النكراء ، مع ذلك ، أحداً !!

برميل القذر

يملأ برميل بقذر الانسان ، وروث الدواب ، ويغطس فيه الموقوف غطساً ، وقد استعمل هذا في عهدين متماثلين هما عهدا حسني الزعيم ، وأديب الشيشكلي .

التكسير

تكسر أحد أطراف الموقوف ، ثم يقذف في السجن أياماً بغير ان يجبر كسره . ويترك بعدها لسبيله بعد ان يكون قد قاسى آلاما هائلة .

الطعام والحصى :

ويضع المسئولون المدربون ، وأصحاب الخبرة الفنية ، والعلم الغزير في

التعذيب ، قبضة او قبضات من الحصى الناعم في الطعام ، ليحرموا الموقوف لذته، ويفقدوه شهوته، وليشعر بالحياة في كل وجوهها واشكالها ، في ذلك السجن الرهيب ، عذاباً دائماً ، وجحيماً مقيماً !

التعذيب بالكهرباء :

ولقد تفتقت عبقرية هؤلاء الجلادين المختصين عن لون جديد مرعب،من ألوان التعذيب ، فقد طلبوا الى أحد الموقوفين في السجن ، وهو ذو دراية بعلم الكهرباء ، وزعموا له ان جاسوساً يهودياً من اسرائيل ، قد ألقي القبض عليه في جرم التجسس ، وهو يرفض ان يبوح بما يعلم . وانطلت الحيلة على الموقوف فعمد الى صنع آلة كهربائية للتعذيب ، مؤلفة من سلك رفيع - لئلا يقتل التيار - ومربوط هذا السلك بقيد حديدي . وعلمهم بعد صنعها انه اذا اريد ان يكون التعذيب أبعد تأثيراً، وأكثر ارهاباً ، بصب قليل من الماء تحت رجلي «الجاسوس» ولم يدر انه صنع آلة تعذيبه بيديه ، وان لا يهودي هنالك ولا ما يزعمون،وجيء به لتجربتها ، ووضع القيد في يديه ، وأجري التيار في السلك ، فبدأ المسكين يتلوى كالمذبوح وتتقلص عضلات وجهه، وبدا كمن ركبته حمى الموت بنفضها وارعادها .

مثل : الدروز الجرحى :

ولقد شاهدنا جميعاً لوناً من ألوان التعذيب في اخواننا الدروز،فقد جيء بخمسين منهم وحشروا في المهجع المقابل ، وكان بينهم جرحى برصاص الطاغية وفيهم طفل لم يتجاوز الثانية عشرة . ولكن وحشية الديكتاتور ، وتسلبه من

كل خصائص الوطنية ، والانسانية مع زبانيته وأجرائه ، حملته على الامر بترك الجرحى في السجن دون تضميد لجراحهم حتى تقيحت ونغلت ، وغدا صراخهم الاليم يقطع أنوطة القلوب ، المتحجر منها !! ولكنه لم يقطع في قلب الجلاد نياطاً ، لأنه فقد ذلك القلب الذي يشعر بشعور الانسان ، ويتألم ألمه !!

*

هذه ألوان من التعذيب ، وليست كلها ، عرضت جانباً منها ، للذكرى والتاريخ .. والعبرة .

الأيام الأخيرة

كانت الايام الاخيرة ، أشد أيام المعتقل قلقاً ، وأبعدها تأثيراً . فقد كنا ننتظر أن تنتهي الاحكام العرفية في البلاد . وكنـــا نقلب الامر على وجوهه ونتساءل بعضنا : ترى أيمدد الشيشكلي أحكامه أم ينهيها ؟ وهل يمددها في مجلسه المزور ، أم يقطعها يوماً ليعود بها ؟!

وكان الجواب يتوقف على الوضع في الخارج ، ولم نكن نعرف عنه الا حدساً وتخميناً . أو ماينقله الينا بعض المعتقلين الجدد ، ممن جيء بهم في الايام الاخيرة المتبقية من الاحكام العرفية ، ولم يكن علم هؤلاء بالوضع اكثر مما نعلم ، فقد كانت الصحافة فريسة الخوف من الطغيان الباطش ، وعذرها واضح . وكانت المدن مقطوعة فيما بينها الانباء ، فلا يتصل بحلب مثلا خبر موثوق من دمشق ، ولا بدمشق خبر من السويداء ، ولا بهذه خبر من غيرها .. الا ماتروجه الشائعات وهي كثيرة في مثل هذه الظروف . وهكذا فقد استحالت سوريا كلها الى سجن كبير ، ليس فيه الا شعب سجين ، وديكتاتور سجان !

وجاء الخامس والعشرون من شباط - الخميس - وكنا نرتقب ان يقع حادث ما . لم يكن واضحاً في اذهاننا مانرتقب ، أهو انقلاب أم ثورة ، ام اغتيال ، أم هرب ، ام انهاء الاحكام العرفية واطلاق سراحنا ؟؟؟ . حادث ما كنا نرتقب وقوعه ، دون ان يكون محدداً ، او واضحاً .

وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل سمعنا قرقعة المفتاح في القفل ، ودخل رقيبنا الحارس ، لينقل النبأ السار . وقال : لقد استقال الشيشكلي ، ومضى على وجهه خارج البلاد هارباً .وانخفض صوت الرقيب.ولله درة لا نتاسار ره وضحك المسعوط الخيشوم بالخردل !

وبعد قليل ، وكان النوم قد فارقنا جميعاً ، دخل الرئيس مصطفى رام حمدان لينقل الينا النبأ ، وبعض التفاصيل وقال ان الجيش قد وقف الى جانب الشعب في ثورته على الطاغية . وان اديب الشيشكلي قد غادر البلاد في الساعة التاسعة من مساء الخميس . وقد أطلق سراح قادة الاحزاب ورؤسائها . وطلب اليهم الجيش الاتفاق فيما بينهم على وجهة نظر واحدة ، ليجنبوا البلاد اضطرابات جديدة ، والا وجد الجيش نفسه مكرها على التدخل واجراء انتخابات سريعة .

وطلب الينا الرئيس حمدان الهدوء ، ريثما يفرج عنا في الصباح .. وودعنا.

وقد أخرج ليلاً عدد من كبار الضباط المعتقلين ، ممن قاوم الطاغية ، واراد للجيش ان يبتعد عن السياسة ، بعد ان اصبح مطية للمغامرين ، والحالمين بالسلطة ، يحكمون باسمه البلاد ، ويتسلطون على الشعب تسلط المستعمر.

ولم نعد الى النوم ، بانتظار الافراج . فقد تيقظت كل حواسنا ، وتنبهت

كل خلية فينا ، وأصبح النوم عسيراً علينا في مثل تلك الحالة النفسية .

وسارع بعضنا الى أغراضه وحوائجه يجمعها ، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية والنصف من صباح الجمعة الباكر . وقعدنا ننتظر .

ومرت الساعات طويلة ، مرهقة ، وأخذتنا اللهفة ، ووددنا لو تفتح ابواب السجن جميعاً لننطلق منها ، فنشم الهواء بغير تقنين ، ونرى الوطن حراً وقد تفلت من براثن الديكتاتور ، ومن ورائه الاستعمار ، سيده الآمر !

وأقبل الصباح المضيء ، يزحف في بطء شديد . ومرت الساعات الاولى منه ولم يفرج عنا . وبدأ الضجر المثير يأخذ بمخانقنا

وكان المهجع الكبير قد استحال الى خليط عجيب من الاغطية المتناثرة والمكدسة ، وقشور الفواكه الملقاة في كل ركن من اركانه وزاوية من زواياه .

وجاء الظهر ونحن في انتظارنا القلق ، وربما الشعور باهمالنا في كياننا جميعاً حتى استحال الى ضرب من ضروب الغيظ والحنق . وأضربنا عن الطعام احتجاجاً . وبدأنا نصخب ونضرب الباب بأقدامنا ! وكانت لحظة عنيفة ، ثارت فيها نفوسنا وقررنا ان نخرج في فرصة التنفس فلا ندخل المهاجع مع بقية الرفاق ، حتى يفسر لنا مدير السجن سبب بقائنا . ولكن بعض الرفاق عارض التمرد والاضراب حتى يتوضح الموقف في الخارج . ولم يكن للوضع الشاذ من تفسير لدينا سوى ان رؤساء الاحزاب لم يتفقوا بعد ، وان حراجة الموقف حالت دون اطلاق سراحنا .

وأقبل المساء ، ونحن في حالتنا هذه بين داع الى الاستمرار في الاضراب

ومعارض له .. ومضطرب ، وداع الى الهدوء .. ونمنا ليلتنا تلك وقد امتلأت نفوسنا بالغيظ ، وساءنا ان يبلغ إهمالنا هذا المبلغ .

وكان نومنا قلقاً ، متقطعاً ، فلم يكن بيننا الا تأثر في ظاهره او في اعماقه .

وطلع الصباح ، وقد استحال كل شيء في نظرنا الى سواد ، حتى نور الفجر لم نشعر به الا امتداداً لظلام الليل .

وفتح الرقيب الباب لنخرج الى فسحة السجن في فرصتنا اليومية . تماما كما لو ان الشيشكلي ما يزال حاكم البلاد !! ومن سطح السجن ، شاهدنا عدداً كبيراً من الدبابات يزحف الى دمشق عن طريق قطنا ، فبدأ الشك يدب في نفوسنا ، وأخذنا نفسر الامر بغير ما كنا نشك به .. فقد خشي كل منا ان يعلن ما بنفسه من ارتياب .

وجاءنا النبأ . لقد انشق عن حركة الجيش الرئيسان حسين حـــدة وعبد الحق شحادة ، وقبضة صغيرة من الضباط معهما . واحتلت قواتهما المدرعة دمشق في محاولة لاعادة الشيشكلي .

وقد استبعدنا عودة الشيشكلي من النبأ . فقد كنا نعلم مسئولية هذين الضابطين عن بعض الجرائم أيام الشيشكلي ، ولعلهما خشيا المسئولية ، فأرادا من حركتهما المساومة على السلامة والنجاة .

ولكننا ، مع هذا التفسير الواضح ، كنا قلقين .

والعجيب ان عبد الحق شحادة زار السجن في ليلة الانقلاب مع بقية الضباط ، وتحدث الى بعض رفاقنا في المهجع الاول ، وقال انه مشترك في الانقلاب على الشيشكلي ، الطاغية الخائن ـ وهذه كلماته ! ـ

وبدا لبعض الرفاق أن يقف الى رف المهجع ويتطاول ، لينظر من النافذة الصغيرة المشرفة على طريق قطنا ، ويشاهد ما قد يحدث .

وكانت المفاجأة الثانية . فثم حركة غير طبيعية في سفح الجبل تقوم بها سرية التسلح في الجيش . وبدأنا جميعاً نراقب الحركة خلسة ـ فقد كان شرطي السجن الحارس ، يحول بيننا وبين المراقبة ـ فرأينا الجنود يحفرون الخنادق حول السجن ، ويقومون بحركة التفاف ، وقد نصبوا مدافعهم الرشاشة ، ووجهوا بعضها نحو السجن ، وبعضها الآخر نحو الطريق العام ، وفعل حرس السجن مثل فعل الجنود ، فسلطوا مدافعهم الرشاشة نحو السرية .

وكانت ساعات من احرج ما مر بنا . فقد خشينا اصطدام جنود السجن وجنود السرية ، ونحن عزل ليس معنا ما ندافع به عن انفسنا ، وخشينا اكثر عواقب الاصطدام ، وانشقاق الجيش ، فان هذا معناه الحرب الاهلية في البلاد ، وتدخل اسرائيل او تركيا ، او كلاهما ، وليس كهذه الفرصة ، فرصة مواتية .

وجلسنا نبحث الامر لنري لانفسنا مخرجا . ولم يكن بيدنا ان نفعل شيئاً ، فقد كان السجن يشل إرادتنا وقوانا ، فصبرنا على كره ، ولهفة وشعرنا ان وضع البلاد غدا كالسفينة المشرفة على الغرق ، وقد رجفت قلوب بحارتها وركابها .

وجاء الظهر . فلم يسمح لنا بالخروج الى سطح السجن في فرصة التنفس وعلمنا ان الجنود قد استنفروا ، وان لا سبيل الى خروجنا . فزاد هذا في قلقنا .

وذهب الظن بنا الى ان المنشقين من الضباط يساومون علينا .. واننا في كفة الميزان ، قد تهبط بنا ، وقد ترتفع .

وفجأة .. في الساعة الرابعة والنصف تماماً من مساء السبت ، قرقعت المفاتيح .. ودخل الرقيب فطلب الينا ان نتهيأ ، ونجمع اغراضنا ، لنخرج .

كانت مفاجأة حقاً ، أخذتنا بعض الوقت فلم نحرك ساكناً ، ثم قفزنا جميعاً في سرعة عجيبة نستعد .

ومضت دقائق أطول من عام ، وطارت افكار كل منا في اتجاه رياحها ؛ ثم خرجنا جماعات ، جماعات .

ولم تكن سيارات الشرطة تنتظرنا لتقلنا الى دمشق – كما قدرنا – . فكان علينا ان نهبط مشياً ، ودون ان نمر بمنطقة الاستنفار العسكرية التي ترابط فيها سرية التسلح . وحملنا اغراضنا في ايدينا وعلى اكتافنا وانحدرنا نقطع الطريق في خط مستقيم نحو قرية المزة ، بجانب المستشفى العسكري واستقبلنا في مدخل القرية المواطنون من اهل القرية بنظرات مأخوذة ؛ ذاهلة ،وكأن هذه الاشباح التي تمر بها ؛ حلماً لا حقيقة . ومن القرية انطلقت بنا سيارات صغيره أقلتنا الى دمشق .

ودخلنا دمشق . وكان مرورنا بمنزل الطاغية الهارب ، وهو منزل أنيق فخم ، في شارع أنيق فخم ، تملؤه القصور ؛ وتحيط به حديقـة غناء ، ومر بخاطري في تلك اللحظة ، قصة عن لينين ترويها زوجته حين زار لندن ١٩٠٢ فقد كان لينين يرى فيها عالمين اثنين لا عالماً واحداً ، فمن جانب عالم الجمادات المادئة ، والقصور الفخمة ، والحدائق الجميلة ، والعربات الفارهة ، ومن جانب آخر عالم الشوارع الحقيرة الغاصة بالاوساخ والاقذار ، حيث يتكدس العمال بنسيلهم المنشور امام منازلهم ، واطفالهم الصفر الوجوه ، المعروقي الايدي ،

وكان لينين يصر باسنانه حين يرى هذه التناقضات الصارخة بين البؤس والثروة، وردد في حنق وغيظ : أمتان .

وكتب لينين بعد ذلك يقول : ملاكون من جهة ، وعمال اجراء من جهة اخرى. عدد ضئيل من كبار الاغنياء من جهة ، وعشرات الملايين من الشغيلة غير المالكين من جهة ثانية . حقاً انهما أمتان .

مرت بخاطري هذه القصة ، وانا اشاهد قصر الطاغية الضخم ؟ والقصور المحيطة به . ثم قلت بنفسي : حقا انهما أمتان . وكيف يمكن لمجتمع ـ أي مجتمع ـ ان يشكل امة واحدة وان توفرت له شروط الامة وخصائصها اذا كان يجمع بين الجياع المدقعين ، والمترفين المتخمين ؟ بين ساكني هذي القصور ، وساكني تلك القبور ؟ اننا نعيش حقاً من واقعنا السيء في أمتين منفصلتين امة الفلاحين المضطهدين ، والعمال المسروقين ، وبقية افراد الشعب الطمين ، وامة الاقطاعيين الكبار ، والمستثمرين المتحكمين بمصير الوطن ، المتصرفين به تصرف المالك ، على اختلاف العهود .

حقاً ، أمتان نحن في بلادنا . أمة قليلة ظالمة ، وأمة كثيرة مظلومة ولا سبيل الى الحياة الا ان تظفر الثانية .. وستظفر .

وكانت السيارة قد وصلت بنا ساحة المرجة ، فأفقت من خواطري هذه التي ملأت شعاب نفسي ، على صخب وضجيج . وكانت دمشق مضربة تقطعها المظاهرات الصاخبة طولاً عرضاً .

ودخلنا الفندق لنرتاح قليلا ، ويجمع كل منا ما تفرق من نفسه ، فقد كنا نشعر ان كل جزء فينا استحال الى نفس جديدة يكظها من الخواطر

مايشغلها . فنحن نفكر في الوطن ، وفي الاهل .. فيما نحن به ، وفيما ننتهي اليه .. في الوضع وفي نتائجه . شعور واحد كان يجمعنا ، ويملأ كياننا ، هو اننا نستنشق الهواء دون تقتير ولا وزن .

وعلمنا في الفندق من بعض النزلاء ان دمشق اضربت منذ الصباح الباكر اضرابا شملها جميعاً ، تأييدا لحركة الشمال، واستنكاراً لانشقاق حدةوشدة عن الحركة المؤيدة من الشعب ، والمعبرة عن إرادته أصدق التعبير . وكانت دار الاذاعة محتلة من القوة المنشقة ، تذيع منها كاذب البيانات ، وتشوش على محطة حلب لتمنع صوت القيادة الحرة من بلوغ آذان المواطنين .

وعلمنا من أحاديث الناس ومن الصحف التي استردت حريتها المعتقلة هي الاخرى ، بعض التفاصيل عن حركة الجيش والشعب .

ففي صباح الخميس - ٢٥ شباط ٩٥٤ - أفاق المواطنون على صوت اذاعة حلب تعلن ثورة مناطق حلب واللاذقية والفرات على الشيشكلي ، وتطالبه بمغادرة البلاد . ولم تكن تملك مايضمن لها في ثورتها النتيجة ويحقق النصر ، الا ايمانها ، والا نقمة الشعب الثائر معها ، عمالاً وفلاحين ، وطلاباً ومحامين ، وإلا وطنية بقية الضباط والجنود الشرفاء الذين تملأ نفوسهم هم ايضاً ثورة عارمة . لقد حكم الشيشكلي الشعب باسم الجيش كقائد للانقلاب ، وحكم الجيش باسم الشعب كرئيس للجمهورية ، وكان الجيش والشعب يعلمان انه قائد خائن ، ورئيس مزور ، فقد خان ارادة الجيش في انقاذ البلاد مما كانت تتخبط به على ايدي مرتزقة السياسة ، وما كان يتهددها من مؤامراتهم ومشاريعهم ، فاستغل الحركة ليصل الى الحكم ، وليمشي في الطريق نفسه .. طريق مرتزقة

السياسة ، عملاء المستعمر .. وقد زور ارادة الشعب لينصب من نفسه رئيساً غير شرعي للبلاد .

ولم يمض على اعلان ثورة المناطق الثلاث الا القليل حتى انضمت اليها منطقتا حمص وحماه وأعلنتا تضامنها معها .. ثم انضمت منطقة حوران وقيادة الحدود .. وهكذا وقف الجيش كله الى جانب الشعب معلناً الثورة على حكم الفرد ، حكم الدكتاتور ، حكم البطش والطغيان والخيانة .

وتلاحقت الحوادث وكانت كما وصفها احد عملاء الشيشكلي واجرائه كطلقات المسدس المتتابعة ان لم تصب الاولى اصابت الثانية ..

وكانت مفاجآت للشيشكلي لم يتوقعها ، ولم يستطع مقاومتها فانهارت اعصابه دفعة واحدة . وحين اراد المقاومة ـ وقد ارادها ، وكان على استعداد للتضحية بالوطن كله في سبيل رئاسته ـ خذله ضباط دمشق ، الا الضابطين المنشقين ، بموقفهم الجامد . فما كان اسرعه الى الفرار في المساء مع شقيقه مهرب المخدرات تاركاً وراءه في حقارة بالغة ، زوجته واولاده معرضين لنقمة الشعب في ثورته . ولكن الشعب النبيل الطيب ، لم يشأ ان يأخذ ابرياء بجرائم الخائن ، فلم يمس من اسرته شعرة واحدة ، وكان حرياً به ان يمزقها تمزيقاً ، فقد يتم الشيشكلي الكثير من ابناء الشعب ... واثكل ورمل الكثيرات من نسائه .

ولكن ما ان غادر الشيشكلي البلاد ، وظن قادة الحركة ان الامر قد استتب ، وان البلاد قد جنبت اراقة الدماء بفضل تضامن الجيش والشعب ، حتى انشق الرئيسان حدة وشحادة وبعض المسئولين عن جرائمه وآثامه ،

وحاولوا الردة على الحركة ـ وهم يملكون سلاح المدرعات اقوى اسلحة الجيش ـ حتى اذا مانجحت عادالشيشكلي ، فان اخفقت فلا اقل من المساومة على النجاة من مسئولياتهم امام القضاء .

وجاءت الانباء بعد ذلك تكشف المؤامرة وتؤيدها ، فقد حاول الشيشكلي العودة من لبنان حين جاءه نبأ الردة لولا أن المسئولين في البلد الشقيق وقفوا بينه وبين المحاولة ، فقد ادركوا ان معنى عودته حرب أهلية في البلاد، لاتعرف نتائجها الخطيرة ، ولا يخرج منها الا الوطن خاسراً مغلوباً .

واخفقت الحركة ، كما قدر لها . وبتنا ليلتنا تلك في دمشق ، ولكن الخشية من أن يقوم المرتدون بالقبض علينا في محاولة اخيرة للمساومة بنا ، حملتنا على الهرب من الفندق ، وتفرقنا جميعاً لينام كل منا في بيت صديق له ، او قريب .

واستمر الرصاص يلعلع في سماء دمشق حتى الساعة الثامنة مساء ، حيث اعلن منع التجول ، فقد اصطدم رجال الامن بالمتظاهرين الثائرين الذين هاجموا دار الحكومة والبلدية ، ومديرية الشرطة ، ووقع عدد كبير من الجرحي .

ومن الطرائف التي أذكرء ان احد الرفاق حبكت معه النكتة ، ولم ينس مرحه حتى في تلك اللحظات الحرجة الحاسمة . فقد اقترح ان نطالب بتعيين ممثل للقيادة الحرة الشمالية في الجنوب ، لحفظ ارواح وحقوق الرعايا الشماليين !

وأفقنا مع صباح الاحد الباكر لنسمع نبأ انسحاب القوات المرتدة الى القابون واستسلامها بعد ان انذرتها القيادة الحرة في الشمال انذارها الاخير .

وسارعنا الى السفر ، من هذا الجو المحموم . ومررنا في طريقنا حلب بحمص فحضرنا جانباً من المؤتمر الوطني ، هذا المؤتمر الذي مزق ميثا فيما بعد تمزيقاً وديس دوساً.

وانطلقنا الى حلب في شوق ملح الى الاهل ، وقد طوينا صفح الاعتقال وطوي الشعب صفحة الديكتاتورية والطغيان ... ليفتح صفح اخرى من صفحاتها !!

بعد السجن

* ليست الحرية في منسح الأرض ،
ولكنها في نوع الحياة . ونحن نعيش من
حياتنا هذه في سجن كبير !

لقد طالما سألت نفسي في المعتقل ، حين كانت تطفح بالثورة ، وتود لو انطلقت كالسيل ، جارفة كل مايعوق انطلاقها ، ويقف في طريقها : هل كنت حراً خارج هذه الجدران الاربعة التي تضمني في المهجع الكبير ؟

هل كنت حرا على أرض وطني ؟

ان الحرية كما شعرت بها في المعتقل ، ليست في متسع الارض ومضطربها ولكنها في نوع الحياة وأسلوبها . فأنا سجين في وطني كما أنا سجين في المزة ، مادامت الحياة التي أحياها مفقودة الانسانية .

ان السجن يحتجز حريتنا في العمل من أجل الحرية . انه يشل نشاطنا فحسب . أما حريتنا نفسها ، حرية وجودنا وانسانيتنا ، فمفقودة أصلا ، قبل السجن وبعده ، مادام المجتمع الذي نعيش فيه مجتمعاً لصوصياً يسرق لقمة الخبز ، وحق الحياة .

انا نعيش من حياتنا في سجن كبير ، ليست المزة أسوأ مافيه .

فأنا سجين في تلك الرقعة الضيقة من الارض ، كما أنا سجين هنا في الرقعة الفسيحة !

أنا سجين مادام في البلاد عامل عاطل أو مستغل ، سجين مادام هنالك فلاح مستعبد يعيش حياة الحيوان الغليظ الخانع ، أو ماهو أسوأ منها ، فان الحيوان يجد من يعلفه ويسقيه شبعاً ورياً ، أما هو فعليه ان يكدح ويشقى في سبيل العلف والشراب ، ودون الشبع والري !

وأنا سجين مادام هنالك مواطن واحد ، لا يجد اللقمة ، ولا ضمان الحياة فهو يعيش في خوف دائم من الغد ، هذا الغد المرعب فيما قد يجيء به ، ولا يملك له دفعاً ، ولا رداً .

وأنا سجين مادام المجتمع يفرض علي عاداته وتقاليده الفارغة الجوفاء .. وما دام يكرهني على احترام آرائه ومعتقداته ، والايمان بها .

وأنا سجين مادامت نفسي لم تخلص من رواسب مالقنني اياه بيتي القديم وبيئتي العتيقة ، وما دامت لم تتمرد على كل قيم حياة مجتمعي الغيبي ، لتبني قيماً انسانية جديدة وترفع حياة انسانية جديدة .

ان معنى الحرية التي ناضل الشعب ، ويناضل من أجلها ، أيام الديكتاتورية الباطشة ، وما قبلها ، وما بعدها ، ليس كمال الحرية وتمامها . فتلك حرية كانت وما تزال مفقودة ، ولكنها حرية العمل من أجل الحرية حرية النضال والكفاح في سبيل حرية الوجود والانسانية . قد يطول هذا النضال وذلك الكفاح ، وقد يشق ويعسر ، ويسقط الكثيرون على جانبي الطريق صرعى ولكن الشعب واصل الى حريته الكاملة بحتمية التطور ، وبرغم اللصوص والجلادين ، وسجون الارهاب والتعذيب .

اخطاء وصوابها

وقعت أخطاء مطبعية نعتذر عنها وهذه أهمها

ص	سطر	خطأ	صواب
٩	٥	أحلامه	أحلافه
١٢	١٧	لجنود	لجهود
١٢	١٩	فبلار	فيلار
١٦	٩	غير	غير يد
١٧	٧	نحوه	نحو
٢٣	١٥	التنفيس	التنفس
٣٠	٨	شاده	شاذة
٣٠	٩	خاضه	خاصة
٣١	٥	قومية	قوميته
٣٩	١٢	رتيبها	رتيبيتها
٤٥	٣	القواد	القوات
٤٥	٧	العسكرية	الاقتصادية
٤٦	١٨	المصلحة	المصلحة مع
٥١	٤	؟	
٥١	١٠	بالحرب	بالسلم

ص	سطر	خطأ	صواب
٥١	١٤	وصعابها	وصابها
٥٢	١٦	الناحبين	الناصبين
٥٩	٩	ذى	ذا
٦١	١١	بصب	يصب
٦٥	٧	وللمرة	وللمرة الاولى

فهرس

